السنة السابعة (ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ — ابريل سنة ١٩٤١ م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

تصدرها « جماعة دار العلوم »
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى المولد النبوى

« احتفلت جماعة دار العلوم بالمولد النبوى احتفالا يناسب مقام النبوة وألقيت كلمات وأنشدت أناشيد دينية وقومية ، ونفتتح هذا العدد بكلمة للأستاذ محمد سعيد العريان تحية لهذه الذكرى الطيبة ثم يأتى بعدها النشيد القومى للغة العربية » .

سادتى ، إخوانى :

فى هذه الليلة المباركة ، نحتفل بأعظم يوم فى تاريخ البشرية كلها ؛ لأنه يوم مولد محمد ، ويوم هجرة محمد ، ﷺ .

وأحسبها لم تكن مصادفةً واتفاقاً أن يكون ميلاد محمد ، هو يومَ هجرة محمد ؛ ولكنه قدر مقدور ، قدره بارئُه ليكون كالرمز أو الإيماء للناس بأن هذا اليوم فى تاريخ البشرية له شأن لا يبلغه يوم من أيام التاريخ ، لأن فيه مولد نبى ، ومولد دين .

فى الثانى عشر من ربيع الأول عامَ الفيل ، وُلد محمد بشيرا بكلمة الله ؛ وفى الثانى عشر من ربيع الأول بعد ثلاث وخمسين سنة ، كانت هجرة محمد بدينه إلى الله ؛ فكانت هجرتُه مولدَ هذا الدين . ألا ما أشبه ما بين اليومين ، وما أبلغ الرمز والإيماء إلى ما يشيران من معان .

هل لى أن أقول إن هذا اليوم من التاريخ لم يكن مولد محمد وحسب ؛ ولكنه يوم ميلاد الإنسانية كلِّها من جديد ، بعد ما بليت كلُّ معانى الإنسانية فى نفوس البشر قبل مبعث محمد ؟

نعم ، فما هو فرد وُلد ؛ ولكنه جيل مطبوع على المثال الأعلى من خلق الله ، وُلِد يوم مولد محمد ، ثم شب وبلغ ، ثم نضج واكتمل ، ثم ... ثم إذا هو جيش زاحف متقحم لا يثبت له شىء ، يبسط جناحيه على الدنيا تحت راية محمد ، يدعو البشرية كلها إلى مَثَل الإنسانية الأعلى فى دين محمد !

وكان مولده مولد أمة ، وكانت هجرته مولد دين ...

٭٭٭

واستعلن السر الذى كانت توسوس به رمال الصحراء تحت خفق الريح فى الغدوِّ والآصال ، فإذا صوت محمد يملأ مسمعَ الدنيا ...

وتحركت الظلال الساكنة بين صخور القفر وشعاب البيداء ، فإذا جيش المسلمين يقبض راحته على الدنيا ويبسطها ...

وتسحَّب الشعاع الطالع من أفق المشرق على صخور الحَرَّة ، فإذا هو نور تترقرق أضواؤه بين شرق الدنيا ومغربها ؛ فى كل دار منه قبس يضيء وفى كل قلب شعاعةٌ تحقق ...

وتلفَّتت الدنيا لتنظر ، فإذا أعرابى فى شملة يقود قطيعا من الحُملان إلى الغدير ... واهتدى القطيع الساغب الظمآن إلى راعيه بعد حيرة وضلال ، فأوى إليه ، ورفرف الأمن والسلام على الدنيا ...

كان ذلك منذ بضعة عشر قرناً . فأين نحن اليوم مما كنا ؟ وأين الدنيا مما كانت ؟ لقد تبدَّد القطيع وتفرقت به السبل فى فجاج البيد ؛ فماله راع يركن إليه ؛ وماله سرحة يتفيأ ظلالها ؛ وإن هناك لنمرا يتوثب ، وإن هنا الثعلب يتحبب ، والقطيع الشارد فى غفلته يلتمس السبيل فلا يجد من يهديه السبيل !

سادتى ، وإخوانى :

فى هذه الليلة المباركة ، وقد اجتمعنا لتحية ذكرى صاحب الرسالة فى يوميه يوم مولده ويوم هجرته ، يجمل بنا أن نرجع إلى أنفسنا لحظات لنستلهم وحى النبى فى أنفسنا ، ثم لنجدد فى أنفسنا من معانى هذه الليلة معنى القوة التى كثر بها الإسلام من قلة ، وقوى من ضعف .

لقد بدأ الإسلام يوم بدأ والمسلمون يومئذ أربعة : حر وعبد ، وامرأة وصبى ؛ فما هى إلا سنوات بمقدار مايشب الوليد ، حتى كان الإسلام هو دينَ الدنيا الجديدة ، وحتى كان المسلمون ملوك الأرض !

وإن هذه القوة التى نهضت بآبائنا منذ بضعة عشر قرنا إلى حيث لا يطمع

متملك ، لجديرة بأن تنهض بنا اليوم إلى حيث لا يتسامى أمل آمل ؛ لو تحققنا بالإيمان والصبر !

الإيمان والصبر : هذان هما السلاحان اللذان يبلغان بنا النصر ، لو أننا أردنا أن نبلغ النصر . آمِن بحقك أولا ، ثم اصبر وثابر ، فما بدٌّ أن تبلغ ما تريد بالإيمان والصبر !

دعوا الدنيا تموج موجها وتصطرع بمن فيها ، مؤمنين بأن لنا دنيا الغد ، تكن لنا دنيا الغد ، إن الله لا يخلف موعده .

وإننى من هذا المنبر ، فى هذا المكان ، بين هذه الجماعة ، لأكاد أومن إيماناً لاريب فيه ، أن رسالةً جديدة يوشك أن ينبثق فجرها من هذا المكان ؛ فمن ذا يستطيع أن يثبت للدعوة الجديدة إلا رجل منا ؛ نحن الذين ألقت علينا الأيام أمانة هذا الدين ، الدين الخالص من جمود الرجعية التى توشك أن تتردَّى به ويتردَّى بها ، الخالص من دعوى الحرية والابتداع ؟

من ذا يستطيع أن يثبت للدعوة الجديدة فيرفع بها صوته فصيحا مبيناً لينفذ بها فى رفق إلى كل قلب ، إلا رجلٌ منا ، نحن الذين نعرف هذا الدينَ كما نزل على محمد ، بريئاً من التعقيد والتقليد والابتداع ..

رجلٌ يملك البيان ، ويملك الإيمان والصبر !

نحن فئة قليلة ، ولكن أصحاب محمد لم يكونوا كثرة ؛ نحن ضعاف ، ولكن أصحاب محمد لم يكن بهم قوة ! نحن فقراء ، ولكن أصحاب محمد لم يكن معهم مال ؛ نحن . . . من نحن ؟ نحن نملك الإيمان والصبر ، وهما كلُّ عدةَ الظافر ؛ فلنكن دعاة لديننا ووطننا ، فإن ذلك حقيق أن يُبلغنا ويَبلغَ بنا . .

وليكن لنا من ذكرى هذا اليوم درس يعيد إلى نفوسنا الثقة ، فاخرين بأمجاد الماضى الذى كان ، مؤمنين بأن الغد لنا ؛ لأننا نريد أن يكون الغد لنا .

والسلام عليكم ؟

النشيد القومى للغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

وتلحين

الأستاذ شريف طاهر

المدرس بمدرسة راتب باشا الابتدائية

لُغَتى : دِينى وَطَنى

لُغَةُ الأمْجَاد مُنْذُ يَعْرُب : لُغَتى

وَلسانُ الحقِّ من عَهْد النَّبِى : لُغَتى

مَجْدُها مَجْدى وتَارِيخُ أَبِى : لُغَتى

لُغَتى : دِينى وَطَنى

لُغَةُ الرَّحْمَن فى قُرْآنه : لُغَتى

وَلسَانُ الوَحْى فى تبْيَانه : لُغَتى

وَبَيَانُ الحُرِّ عَنْ وجْدَانه : لُغَتى

لُغَتى : دِينى وَطَنى

يُغفلُ التّاريخُ في تَسْطيره

عِزّةَ الماضي ولا تُغفلُني : لُغتي

يَعجزُ الفنّانُ في تعبيره

عن معانيه ولا تُعجزُني : لُغتي

ويضيقُ الفنُّ في تَصْويره

عن مراميه ولا تَخْذُلُني : لُغتي

لُغتي : ديني وَطَني

وَسعتْ كُلَّ طريفٍ وتليدٍ : لُغتي

ووعتْ لي عزّةَ الماضي المجيدْ : لُغتي

ضَمنَتْ لي في فمِ الدُّنيا الخُلودْ : لُغتي

لُغتي : ديني وَطَني

نهر النسيان !!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

بمراقبة الثقافة العامة

أسقيانى من خمرة النسيان ! وانسيانى فقد نسيت زمانى !

ونسيت الشباب والسحر والأحــلام والفن والرؤى والأغانى

ونسيت المنى وكانت شعاعاً باهت الظل حائراً فى جنانى

ونسيت الأسى وكان رياحاً أزجت الجن خطوها فى كيانى

ونسيت الأيام حتى تلاشت كهشيم على تراب الزمان

ونسيت الأنغام رعاشة الشد و حيارى حزينة العيدان

ونسيت الدموع وهى أغان أخرستها زوابع الأحزان

غردات السكون مخنوقة اللحـــن تشاجت بسحرها أجفانى !

ونسيت الجمال حتى كأنى لم أضمخ بنوره ألحـــانى

فنسيت العبير والزهر يذكيــه بفجر الطبيعة النعسان

ونسيت الندى وقد كان خمراً لبنى الطير لم ترق فى دنان

ونسيت الأنسام تنقل فى المر ج صـــلاة الطيور للغدران

ونسيت النجوم وهى على الأفـــق نشيد مبعثر الأوزان
ونسيت الربيع وهو نديم الشـــعر والطير والهوى والأمانى
ونسيت الخريف وهو صبا ما ت فسجته شيبة الأغصان
ونسيت الظلام وهو أسى الأر ض وتابوت شجوها الحيران
ونسيت الأكواخ وهى قلوب داميات تلفعت بالدخان
ونسيت القصور وهى قبور ضاحكات البلى من البهتان
ونسيت النعيم والبؤس ... ماذا تركا لى من شقوة أو أمان ؟
ونسيت السلام والحرب ... سيا ن شذى النور أو لظى البركان !
ونسيت الهدوء والضجة الهو جاء ، سيان سكتتى أو بيانى !
ونسيت الكلام ... ماذا جنى المصـــغى إليه سوى بقاء اللسان ؟
ونسيت السكون وهو عزيف أبدى الصدى ، أشل المثانى ...
ونسيت الحياة وهى رماد نفخت ذره يد الشيطان
ونسيت الفناء وهو بجسمى هادم يرصد الفناء لبانى !
ونسيت النسيان والذكر حتى صرت وهماً فى خاطر النسيان .
وتجردت من زمانى وكونى لزمان محجب عن عيانى . .
وإذا بى فى قفرة ألقت الصمـــت عليها صوامع الرهبان

خاصم الدهر ليلها .. فهى دهر   ماراته سريرة الأكوان
ولوى الجن خطوه عن ثراها   فهى حتف لكل إنس وجان
لاظلام ، ولاضياء ، ولكن   غيهب حائر على الكثبان
لاسكون ، ولاضجيج ، ولكن   همهمات تلغطن فى وجدانى
جبت فيها حيران أقذف نفسى   فى خضم مغيب الشطآن
وإذا أشيب يغمغم كالمجـنون بين السهول والوديان
شعوذته السماء فهو خيال   يتزيا بصورة الإنسان
آدمى الرداء أذهله الوهـم ! وغشته هبلة الحيوان !
نقش العنكبوت فوق محيا   ه ظلالا من صفرة الأكفان
مقلتاه بئران دلوهما الظـن ! وغيبان فى الدجى تائهان !
ويداه لقامة الزمن الأعـرج عكازتان مشدوختان
ضم إحداهما ولوح بالأخـرى لواد مخدر نعسان
فيه نهر من الدموع ، وجب   مترع بالأنين والأشجان !
وقلوب أقلها بين جنبيـه سفين يجرى بلا ربان
والهات مجرحات ، حزانى   مزقتها فواجع الأزمان ..
بينها ثاكل ، وآخر شجتـه يد للأسى بغير سنان

وشقيٌّ يسوقه نحس دنيا ه إلى مرفإ شقيِّ المكان
ويتيم ، وبائس ، وغريب وشريد مقطع الأرسان
ومناد دعا الأماني فصدته وعادت إليه بعد الأوان
وحبيب أردته في لهب الأسقام والسهد صرعة الحرمان
وطعين بخنجر الظلم باك دفنت نوحه يد الطغيان
أرعشتني السفين ! واستلب الأشيب دعي ! . . ربّاه ماذا دهاني ؟
فتهاديت كالهشيم على أشلاء روحي المفزع الأسيان
ثم ناديته ، فأمعن في الصمت قليلاً ... وصاح بي : من دعاني ؟!
قلت : روح معذب : قال : من أين ؟ ! فقلت : الأسى إليك رماني
علَّني أستقي الهدوء والقى بين كفيك راحة السلوان !
قال : أقبل ... فكم بدنياك صرعى شربوا من يدي رحيق الحنان !
فتلاشت دموعهم ... أرأيت الشك تبليه ثورة الإيمان !
واستطارت شجونهم ... أرأيت الطيف تطويه هبة الوسنان !
قلت : من أنت ؟ قال : رؤيا خيال كل حي على الوجود رآني !
أنا معنًى في خاطر الغيب ذابت حول أسواره جميع المعاني
أنا كهف مغلف في حشا الدهر يشع الفناء من جدراني

غَلْغَلَتْ فى ثَرَاىَ دُنْيَا الشَّقِيِّــين ، وَلاَذَ الْوُجُومُ فى أَرْكَانِى

وَارْتَمَتْ حَوْلِى الْحُظُوظُ التَّعِيسَا تُ ، وَنَامَ الْعَذَابُ فى أَحْضَانِى

مَدْفَنٌ لِلْخُطُوبِ قَلْبِى ، وَمَنْفًى أَبَدِىٌّ لِنَكْبَةِ الْحَدَثَانِ

أَنَا طِبُّ الْأَيَّامِ أَشْفِى جِرَاحَا تِ الزَّمَانِ الْمُرَزَّأِ اللَّهْفَانِ

أَنَا بَحْرُ الْهُدُوءِ مَنْ مَلَّ دُنْيَا هُ رَمَى عِبْأَهَا عَلَى شُطْآنِى

مُنْذُ مَادَبَّتِ الْخَلاَئِقُ حَوْلِى لَقَّبَتْنِى السَّمَاءُ « بِالنِّسْيَانِ » !

فَنَسِيتُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ مَا أَدْ رِى أَحَىٌّ أَنَا هُنَا أَمْ فَانِ !

مَرَّ بِى « آدَمٌ » قَدِيماً فَأَوْمَأْ تُ إِلَيْهِ بِطَرْفِ هَذَا الْبَنَانِ

فَسَقَى قَلْبَهُ مِنَ النَّهْرِ كَأْساً وَتَلاَشَى عَنْ أَعْيُنِى فى ثَوَانِ

وَإِذَا بِى أَرَاهُ يَهْتِكُ سِرَّ الْــخُلْدِ فى غَيْرِ هَدْأَةٍ أَوْ تَوَانِ

مَالَ بِالدَّوْحَةِ الَّتِى قَدَّسَ اللّــهُ جَنَاهَا ... فَلَمْ تَنَلْهَا يَدَانِ

وَجَنَى مِنْ ثِمَارِهَا هَذِهِ الدُّنْــيَا وَأَحْدَاثَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

عَبَّ خَمْرِى فَأَذْهَلَتْهُ عَنِ الْغَيْــبِ وَأَقْصَتْهُ عَنْ ظِلاَلِ الْجِنَانِ

لَيْتَهُ لَمْ يَذُقْ رَحِيقِى ، وَلَمْ يَهْــرَعْ لِنَهْرِى ، وَلَمْ يُطَاوِعْ بَنَانِى

أَنَا سِرُّ الْوُجُودِ ! مَنْ رَامَ سِرِّى نَسِىَ الْحَشْرَ قَلْبُهُ فى جَنَانِى

قُلْتُ يَاحَادِىَ الْخَطَايَا لِقَبْرٍ مَرِدَتْ رِكْبِهِ يَدُ الْغُفْرَانِ

يَاهَوَايَ الَّذِى تَهَافَتُ بِالرُّو حِ عَلَيْهِ وَبِالْحِجَا وَاللِّسَانِ
أَيْنَمَا سِرتُ جَرَّ طَيفُكَ أَحْلَا مِى، وَمِنْ نَهْرِكَ الْمُصَفَّى سَقَانِى
مُنْذُ مَاجِئْتُ لِلثَّرَى وَأَنَا صَبُّـــكَ.. فَارْحَمْ عِبَادَتِى وَافْتِتَانِى!
مَزَّقَتْنِى أَشْوَاكُ دُنْيَاىَ وَاغْتَا لَتْ شَبَابِى وَأَزْعَجَتْ أَلْحَانِى
الْهَوَى وَالنَّشِيدُ يَرْعَاهُمَا اللّـــهُ. بِتِيهِ الْخُلُودِ قَدْ ضَيَّعَانِى
تَرَكَانِى أَهِيمُ كَالْعَاصِفِ الْمَشْـــدُوهِ فِى كُلِّ بُقْعَةٍ وَمَكَانِ
لَاذَ عُمْرِى بِشَاطِئَيْكَ فَدَعْنِى فِى ثَرَاكَ الْغَرِيبِ أَدْفِنْ زَمَانِى
فَتَمَطَّى.. فَزَلْزَلَ الْأَرْضَ تَحْتِى وَطَوَى الصَّمْتَ فِى الْفَلَا إِذْ طَوَانِى!!

محمود حسن اسماعيل

لهجات العرب فى الابدال (١)

للأستاذ مهدى أحمد خليل
المفتش بوزارة المعارف سابقا

إبدال الحروف إقامة بعضها مقام بعض . وليس المراد به أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب فيها اللفظتان لمعنى واحد حتى لا تختلفا إلا فى حرف واحد .

والدليل على ذلك أن القبيلة الواحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطورا غير مهموزة ، ولا تتكلم بالصاد مرة وبالسين أخرى ، ولا تتكلم بالثاء مرة وبالتاء أخرى ، ولا تتكلم بالظاء مرة وبالضاد أخرى . لا تشترك العرب فى شىء من ذلك ، إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون . وقلما تجد حرفا إلا وقد وقع فيه الإبدال .

والإبدال قسمان شائع وغير شائع ، فغير الشائع وقع فى كل الحروف ، والشائع وقع فى الحروف التى يجمعها قولك : « طويت دائما » .

ابدال التاء من الثاء فى لغة بنى النضير

تبدل التاء من الثاء فى لغة بنى النضير (حى من يهود خيبر من آل هارون وموسى عليهما السلام وقد دخلوا فى العرب) قال السموءل اليهودى :

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ القليلُ من الرِّزْ ق ولا يَنْفَعُ الكثيرُ الخَبِيتُ

أى الخبيث . وسأل الخليل الأصْمَعى عن الخبيت فى هذا البيت فقال له: أراد الخبيث وهى لغة خيبر ، فقال الخليل : لو كان ذلك لغتهم لقال الكتير (بالمثناة) ، وإنما كان ينبغى لك أن تقول : إنهم يقلبون التاء ثاء فى بعض

---

(١) قد بسطنا الكلام على الحروف الهجائية والحركات أصولها وفروعها فى العدد الثانى من السنة السابعة ، وها نحن أولاء نقفى على ذلك بالكلام على لهجات العرب .

الكلمات . وفى كتاب بحر العوام قال الزين ابن الوردى : وقد أبدلت خيبر والنضير من الثاء تاء فى كثير من الكلمات فقالوا فى الثُّوم التوم،وفى المبعوث المبعوت،ومما أبدلت فيه التاء من الثاء الأكثم والأكتم الشبعان ، ثاب إلى الله وتاب رجع ، التوث والتوت الفرصاد ، ثَخَّ العجين وتَخَّ كثر ماؤه ولان ، الثَّوِىّ والتوىّ المقيم ، الثَيْتَل والتَيتل الوَعل أى تيس الجبل، الحلتيث والحلتيت صمغ يخرج من النبات المسمى بهذا الاسم والعامة فى مصر يقولون الحنْتيت ، الشبث والشبت نبات معروف والعامة فى مصر تقول الشَّبت ، طفل مُثْغِرٌ ومتغر نبتت أسنانه بعد السقوط ، الكُوثىّ والكوتىّ الرجل الصغير .

تنبيه

العوام فى مصر يبدلون التاء من الثاء باطراد فى جميع الكلمات فيقولون فى الشَّبث الشَّبت لدابة كثيرة الأرجل من أحناش الأرض ، وفى الحنْث الحنْت وهو الزنى . وفى الحديث يكثر فيهم أولادُ الحنْث أى أولاد الزنى وفى الغلَث الغلَت وهو المدَر والزُّؤان والغلْثُ خلط البر بالشعير أو الذرة . وعم به بعضهم .

ابدال الضاد من الظاء وعكسه

فى المصباح فى مادة ضود : من العرب من يبدل من الظاء ضادا فيقول فى الظّهر الضُّهر ومنهم من يعكس فيقول فى عضت الحرب عظَّت الحرب (على هذه اللغة جرى أهل تونس وما والاها من بلاد الغرب) وهذا وإن نقل فى اللغة وجاز استعماله فى الكلام فلا يجوز العمل به فى كتاب الله لأن القراءة سنة متبعة ، ونقل عن ابن جنى فى التنبيه أن من العرب من يجعل الضاد ظاء مطلقا وفى اللسان في مادة ب ظ ر : ذهب دمه بَظْرا أى هدرا ومن العرب من

يبدل الظاء ضادا فيقول البَضْر فى البَظْر وقد اشتكى ضَهرِى ومنهم من يبدل الضاد ظاء فيقول عظت الحرب بنى تميم .

وروى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: ماتقول فى رجل ظَحَّى بضَبْى؟ (يريد ضَحَى بظَبْى) فعجب عمر ومن معه من قوله فقال: ياأمير المؤمنين، إنها لِغة وكسر لام لُغة، فكان عجبهم من كسر لام لغة أشد من عجبهم من قلب الضاد ظاء فى ضَحَّى والظاء ضادا فى ظَبْى، وقال عمر فى الجواب: لا يُضَحَّى بشيء من الوحش. ومما سمع من ذلك:

الأرْظُ والأرْضُ قوائم الدابة، بَظَّ الضاربُ أوتارَه وبضَّها حركها وهيأها للضرب، قال أبو تراب سمعت أعرابيا من أشجع يقول: بَهَضَنِى الأمرُ وبَهَظَنِى أى فدحنى وبالظاء أكثر، تماظُّوا وتماضُّوا تماضّوا بألسنتهم، الحَظَظُ والحَضَضُ نوع من الكُحْل يقال له الخولان، العَظُّ والعَضُّ شدة الحرب والزمان، العَظْمُ والعَضْم خشبة ذات أصابع تُذَرَّى بها الحِنطة، فاظَ الرجل فَيْظاً وفاض فَيْضامات، وفاظت نفسه لبنى ضبة خرجت وفاضت لبنى تميم وقيل فاضت بالضاد لغة دُكَيْن بن رجاء الفُقَيْمى وحده ولغة سائر العرب فاظت نفسه. وقال أبو حاتم سمعت أبا زيد يقول بنو ضبة وحدهم يقولون فاظت نفسه وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاظت نفسه، وقال الفراء أهل الحجاز وطيء يقولون فاظت نفسه وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاضت نفسه، قَرَّظه وقَرَّضه مدحه بحق أو باطل وهما يتقارظان المدح ويتقارضانه يمدح كل صاحبه، ماء مظعوف ومضعوف كَثُر عليه الناس، الهَيْظَلة والهَيْضَلة الجيش الكثير.

تنبيهات

(١) العامة فى مصر يبدلون الضاد من الظاء على هذه اللغة فيقولون فلان بَتَلَمَّضُ فى يتلمَّظَ أى يتبع بلسانه اللُّماظة وهى بقية الطعام فى الفم بعد

الأكل ، ويقولون اللَّمَاضَة فى اللَّمَاظَة وهى الفصاحة وطلاقة اللسان .

(٢) ومما يعزى لابن الكمال أنه قال كل ظهر يكتب بالظاء إلا ضهر الجبل فإنه يكتب بالضاد وكل بيض يكتب بالضاد إلا بيظ النمل فإنه يكتب بالظاء .

ابدال الصاد والسين وعكسه

لغة بنى العنبر وهم بعض تميم. إبدال الصاد من السين والسين من الصاد إذا تقدمت إحداهما على الخاء أو الطاء أو الغين أو القاف فى كلمة واحدة سواء أكان بينهما فاصل أم لا ، وسواء أكان كل حرف من هذه الأحرف الأربعة ثانى الحرف المبدل منه أم ثالثه أم رابعه . وقيل إذا كانت الصاد أصلا لم يجز القلب . وفى الاقتضاب : وإذا رأيت مايقال بالسين والصاد فاعلم أن السين هى الأصل لأن الأضعف يرد إلى الأقوى ولا يردّ الأقوى إلى الأضعف . ومع القاف تزاد لغة أخرى لكَلْب وهى إبدال الزاى من الصاد وهذا هو الإبدال المطرد وغيره مقصور على السماع .

من أمثلة الخاء

رَسَخَ ورَصَخ ثَبَت ، ساخت رجلُه فى الأرض وصاخت دَخَلت ، السَّخَبُ والصخب شدة الصوت ، سَخَرَ منه سَخَرًا وصَخِر صَخَرًا هزىء ، سَخِط وصخط غضب ، سَرَخ وصرخ ، سَلَخ وصَلَخ ، سِمَاخُ الأذُن وصِماخها ثَقْبها ، ساخط وصاخط .

من أمثلة الطاء

الإسْطَبْل والإصْطبل موقف الدوابّ ، بَسَطه وبصطه نشره والرِّزق وسَعه ، ساطع وصاطع من سطع الغُبار انتشر ، السِّراط والصراط الطريق ، سَلِيطُ اللسان وصليطه حديدُه ، القِسْط والقصط

الحصّة والنصيب والعَدل ومِكيال يسع نصف صاع ، القِسْطاس والقصطاس الميزان .

ومن أمثلة الغين

أَسْبَغَ الله النِّعْمة وأصبغها وسَّعها ، السِّباغُ والصباغُ ما يصبغ به وَسَبغَ وصبغَ ، السَّغَبُ والصغب الجوع ، السُّدْغ والصُّدغُ ما بين العين والأذن ، السَّغير والصغير ، المسْبَغَة والمِصْبغة مكان الصبغ ، المِسْدَغة والمصدغة المِخَدَة ، سَلَغَت الشاة وصلغَت فهى سالغ وصالغ تمت أسنانها.

من أمثلة القاف

البُساق والبصاق والبزاق ماء الفم إذا خرج منه ومادام فيه فريق ويقال بسَق وبَصَق ، بَسَقَت النخلة بُسُوقا وبصقت وبزقت طالت ، سُقته وصقته وزقته حثثته على السير من وراء ، سَبَق وصَبَق وزَبَق تقَدَّم ، السديق والصديق والزديق الكامل فى الصِّدق والخليل والحبيب ، السَّرَق والصَّرَق والزرق جيِّد الحرير ، سَرَق وصرق وزرق الشيءَ أخذه خفيةمن حرز ، سَفَقَه على رأسه وصفقه وزفقه ضربه باليد ، السَّقْر والصقر والزقر طائر معروف ، سقَرُ وصقر وزقر جهنّم ، سَقَعَ الديك وصَقع وزَقع صاح ، السُّنْدوق والصندوق والزندوق معروف ، اللَّسْق واللَّصْق واللَّزق .

ابدال الهمزة من الواو

كل واو انضمت لغير علة جاز همزها وتركها ، ومن أمثلتها :

(١) وُحادَ وأُحادَ ، ووُحدان وأُحدان جمع واحد ، وُثُنٌ وأُثن جمع وَثن وهو الصنم ، وُجوه وأجوه جمع وجه حكى الفراء حَيٌّ الوُجُوه وحَيٌّ الأجوه،وُزن وأزن ، وُعدَ وأُعدَ ، وُقِّتَ وأُقِّت ، وُلدَ وأُلدَ.

(٢) الحُوُول والحُئُول جمع حَوْل وهو السنة ، الخُوُور والخُئُور

جمع خَوْر مَصَب الماء فى البحر ، سار الشراب فى رأسه سُوُورا وسُؤُورا دار وارتفع ، غارت العين غُوورا وغُؤُورا انخسفت ، صال على قِرْنه صُوولا وصُؤُولا سطا واستطال فهو صَوُول وصَؤُول ، قال يقول قَولا فهو قَوُول وقَؤُول ، المَوُونة والمَؤُونة القوت يخزن لوقت الحاجة ، النُّوُور والنُّؤُور دخان الشحم يعالج به الوشم ويحشى به حتى يخضرّ ، النُّوُوش والنُّؤُوش القوىّ ذو البطش ، النُّووم والنُّؤُوم كثير النوم ، سُوُوق وسُؤُوق جمع ساق الشجرة وهو جذعها ، وقرأ بعض القراء : وإن تَلْؤُوا أو تُعْرِضوا فى وَإنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضوا ؛ وذلك كله لأنهم يكرهون الواوين .

(٣) أَدْؤُب فى أَثْوُب جمع ثَوْب قال معروف بن عبدالرحمن :

لِكلِّ دَهْرٍ قد لَبِسْتُ أَثْؤُبا حتّى اكْتَسَى الرَّأْسُ قِناعاً أَشْيَبا

أى إنى تصرفت فى ضروب العيش ولبست لكل زمان لَبُوسه من الأخلاق والمعاملة حتى شاب رأسى ، أَسْوُق وأَسْؤُق جمع ساق الشجرة ، أَدْوُر وأَدْؤُر جمع دار ، أَنْوُر وأَنْؤُر جمع نار قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى .

فلمّا فقدْتُ الصوْتَ مِنهمْ وَأُطفِئتْ مَصابِيحُ شُبّت بالعَشِيِّ وأَنْؤُرُ

وأَنْوُق وأَنْؤُق جمع ناقة وهى الأنثى من الإبل . وذلك كله لأنهم يستثقلون الضمة على الواو والهمزة أقوى منها على احتمالها ، وإنما يجوز الإبدال فى غير المضاعفة فإن ضعفت فى نحو التقوُّل لم يجز .

أمّا إذا انضمت لعلة وهو الإعراب فلا تبدل نحو هذا دَلْوٌ أو التقاء الساكنين نحو اخْشَوُا الله ولَتَرَوُنَّ الجحيمَ .

وكل واو سكنت بعد ضم ففيها اللغتان الهمز وتركه ومن أمثلتها مُوْق ومُؤْق وهو الحمق فى غباوَة ، سُوق وسُؤْق موضع البياعات ، وقد غلب ذلك على لغة أبى حيّة النُّمَيْرِى الذى كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة

وإن لم يكن لها أصل فى الهمز وعلى هذه اللغة قال جرير يمدح هشام بن عبد الملك ويثنى على ابنيه (ابنى جرير) .

أَحَبُّ المُؤْقِدِينَ إِلَىَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةَ إِذْ أَضَاءَهُمَا الوُقُودُ

وأضاءهما أى أنارهما وأظهرهما والوقود روى بضم الواو مصدر وقدت النارُ اشتعلت، وبفتحها الحطب الذى يوقد والمراد وقود نار القِرى ، وتلك عادة العرب يوقد الكريم منهم نارا على موضع عال ليهتدى بها إليه الغريب والمسافر فيأتى للقرى. وصف ابنيه وهما موسى وجَعْدة بالكرم ، وفى رواية وحَرْزة بدل جَعْدة .

وعلى هذه اللغة وجه أبو على قراءة من قرأ عادا الأُؤْلى وقوله تعالى : فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُؤْقه ، فَطَفِقَ مَسْحا بالسُّؤْق .

وإذا كانت الهمزة مكسورة فبنو تميم يبدلون منها همزة نحو وَجد الشىء يجده وِجدانا وإِجدانا ، ووَبُؤت الأرضُ وِباء ووباءةً وإِباء وإِباءة ، ووِرْث وإِرْث ووراثة وإراثة من ورثه ، ووِشاحٌ وإِشاح وهو سير يرصع بالجواهر تشده المرأة فى وسطها ، ووِصْر وإِصْر وهو العهد ، ووِعاء وإِعاء وقد قرأ سعيد بن جُبَيْر: قَبْل إِعاءِ أخيه فى وِعاء أخيه، ووِسادة وإِسادة وهى المِخَدّة ، ووِفادة وإِفادة من وفد عليه وإليه يفد وفادة قدم ، ووِقاء وإِقاء لما وقيت به الشىء ، ووِكاء وإِكاء لسير يوثق به الرَّحل والسرج وشداد السِّقاء ، ووِكاف وإِكاف لبَرذعة الحمار ، وولادة وإِلادة ، ووِلاف وإِلاف للموافقة ويقال بَرْق وِلاف وإِلاف إذا برَق مرتين مرتين وهو الذى يخْطَفُ خَطْفتين فى واحدة ولا يكاد يخلف ، ووِلْدة وإِلدة، والهمزة فى إحدى بدل من الواو لأنها تأنيث أحد والهمزة فى أحد بدل من الواو ، والقلب فى المكسورة مقيس عند المازنى وعدم القلب لغة الحجازيين .

يتبع مهدى أحمد خليل

بين الآمدى وأبي تمام

للأستاذ على النجدى ناصف

كان الآمدى[1] (رحمه الله) أديبا ضليعا . ومؤلفا ناقدا ، واسع الرواية ، بارع الملاحظة ، خبيرا بدقائق اللغة ، وأسرار البيان . وكتابه الموازنة بين أبي تمام والبحترى من أمتع كتب النقد بحثا ، وأوضحها نهجاً ، محكم الأسلوب طلى العبارة ، نقد المؤلف فيه شعر الطائيين نقداً نزيهاً ، لا تحيز فيه ولا حيف.

وهو بما اشتمل عليه من مبادىء وقواعد ، وما تضمنه من آراء ونظريات - حقيق أن يعد بين أصول النقد الأدبى وأن يضاف إلى جملة مراجعه الأولى برغم ما فى بعض مواقفه من قصور أو إجمال[2] .

وطريقته فى النقد قائمة على العرض والتعقيب والاحتجاج ، غير أنه لا يلتزم هذه القواعد الثلاث فى كل مرحلة من مراحل الكتاب ، بل يراوح بينها أحيانا ، ويجمع بينها أحيانا أخرى . فى المرحلة الأولى مثلا ، اقتصر على العرض المجرد ، لا يعدو إزجاء ما يقول أنصار الشاعرين وخصومهما ، أوما عسى أن يقول هؤلاء وأولئك من ألوان التحاج فيهما أو التعصب لهما والتعصب عليهما . وسواء أكان المؤلف (رحمه الله) راوية فى هذه المرحلة أم منشئا - لا جرم أنه على الحالين عارض ولا مزيد إلا فى النادر .

وتراه فى باب معايب الشاعرين يأخذ إخذا آخر : تراه يعرض أمثلة من شعر الشاعر للموضوع الذى يعالجه ، مقلا تارة ، وغير مقل تارة أخرى ،

---

(١) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الأديب ، صاحب كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء ، والموازنة بين أبى تمام والبحترى . توفى سنة ٣٧٠ .

(٢) راجع بابى احتجاج الخصمين : ص : ٣ ، والموازنة بين الشاعرين ، ص : ١٨٤ .

ثم يكر عليها بالنقد والتعقيب أو أحدهما . وسبيله فى ذلك أن يدل بادىء الرأى على موضع الملاحظة من النص ، ثم يعود إليها بالبيان والتحديد أو الشرح والتفصيل .

وإذا فرغ من ذلك وبلغ منه الغاية التى يريد ـ أقبل على رأيه ، يحتج له من اللغة والفلسفة ، أو من الذوق الأدبى والعرف العام ، أو من القواعد والاصطلاحات المقررة ، على حسب ما يدعو إليه المقام ، لا يكاد يخطئه التوفيق ، أو تعييه الإحاطة والاستقراء ، وربما تجرد مع ذلك للمدافعة عن رأيه والتأييد له ، ما وسعته المدافعة والتأييد ، ينفى عنه الشبه ، ويدفع الاعتراضات التى يخطر بالبال أن قد تقف فى سبيله .

ويذهب أبو تمام وحده بأكثر الكتاب ؛ لأن الحديث عنه متشعب ، والمآخذ التى أخذت عليه متنوعة ، يرجع بعضها إلى السرقات ، وبعضها إلى تأليف الكلام وصياغة العبارة ، وبعضها إلى الخطأ فى التفكير ، أو الخطأ فى الاستعمال اللغوى ، أو الخطأ فى الاستعارة . وليس من همنا فى هذا المقام أن نناقش كل مايقبل المناقشة من هذه المآخذ جميعها ، فذلك مجال عريض ، يقتضى حديثا مطولا ، بل مسرفا فى الطول ، وقد يدفع مع ذلك إلى التوسع والاستطراد ، وما لهذا كانت الصحف والمجلات ، ولكن الرسائل والكتب . فلنقصر الحديث إذا على المآخذ المتعلقة بالاستعارة وحدها ؛ لأن المؤلف (رحمه الله) تصدى حين الكلام عنها لتقرير مبادىء وأصول لايزال لها فى الأدب والنقد قيمة ، قد تكون اليوم ذات شأن وخطر ؛ فإن فريقا من الأدباء ، يضيق بكثير من أوضاع الأدب العربى وتقاليده ، ويود جاهدا لو يتخلص منها الأدباء وبخاصة الشعراء ؛ مجاراة لأندادهم من الغربيين ، وأخذا بأسباب التجديد كما يتمثل لهذا الفريق . وهل الدعوة إلى التخلص من الأدب الجاهلى حينا ، والدعوة إلى نبذ أوزان الشعر المأثورة واستحداث غيرها حينا آخر ، والدعوة

إلى التحلل من القافية ومن بعض القواعد المقررة فى اصطناع المجاز والاستعارة حينا ثالثا ، هل هذه الدعوات وما إليها إلا مظاهر لنشاط هذا الفريق ، وأدلة على مايتردد فى صدره من النزوع إلى القلب والتغيير ، بل الإباحة والانطلاق؟ ومهما يكن نصيب هذه الدعوات من التوفيق والنجاح ، أو التعثر والإخفاق فالذى لاخلاف عليه فيما أعتقد أنها تجعل الحديث عن مآخذ الآمدى على أبى تمام فى الاستعارة — حديثا ذا مناسبة تقتضيه ، وتمسك عليه حظه من الاعتبار .

والآن ، هلم إلى الآمدى ، نستمع لما يقول عن أبى تمام من هذه الناحية ، قال : فمن مرذول ألفاظه ، وقبيح استعاراته قوله :

يادهر ! قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

... ، وقوله :

تروح علينا كل يوم ، وتغتدى خطوب ، كأن الدهر منهن يصرع

وقوله :

ألا لايمد الدهر كفا بسيء إلى مجتدى نصر ، فتقطع من الزند

وقوله :

والدهر ألأم من شرقت بلؤمه إلا إذا أشرقته بكريم

... وقوله يصف قصيدة :

يحل يفاع المجد ، حتى كأنه على كل رأس من يد المجد مغفر

لها بين أبواب الملوك مزامر من الذكر ، لم تنفخ ، ولاهى تزمر

وقوله :

به أسلم المعروف بالشام بعد ما ثوى منذ أودى خالد وهو مرتد

...فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ — للدهر أخدعا ، ويدا تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ... ويشرق بالكرام ... وجعل للمجد يدا ، ولقصائده

مزامر إلا أنها تنمخ ولا تزمر، وجعل المعروف مسلما تارة، ومرتدا أخرى ... وهذه استعارات فى غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب. وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له، وملائمة لمعناه (١).

هذا كلام الآمدى (رحمه الله)، وهو يدل صراحة على أنه إنما يستقبح هذه الاستعارات، ويخطىء فيها أبا تمام؛ لأنه استعار فيها بعض أوصاف الحى وخصائصه لما لا حياة فيه، ولا مشابهة بينه وبين الأحياء. وذلك عنده يخالف طريقة العرب فى الاستعارة؛ لأنها إنما تستعير الشىء للشىء إذا كان بينهما مناسبة، تجعل كليهما لائقا بالآخر وملائما له.

والعلاقة – ولا ريب – أساس الاستعارة، ومنبت فكرتها، هى التى توحى بها إلى المتكلم، وتجعلها فى الذوق سائغة مقبولة، وفى النظر صحيحة غير مدخولة. فإذا لم تكن العلاقة لم تكن الاستعارة، وإنما يكون عبث باطل، بل خلل فى صناعة البيان شديد؛ لأن الكلام حينئذ ينقل إلى غير مواضعه التى أعدت له وأعد لها، بلا حكمة ملحوظة، ولا رخصة مبررة، فلا يدرى الناس: أهو مستعمل فى المواضع التى حمل إليها من قبيل الاستعارة، أم من قبيل الاشتراك اللفظى، وتلك فوضى فى الدلالة مابعدها فوضى.

ليس ثمة إذا خلاف على العلاقة وضرورتها للاستعارة، وإنما الخلاف على الاستعارات السابقة نفسها: أهى – كما يرى الآمدى – خاطئة مستهجنة؟ أم هى صحيحة مستكملة الأسباب؟ فى رأيى أن ليس فيها عيب ولا خطأ. ونظرة إلى الصورة التى عرضها الشاعر فى كل منها – جديرة أن تؤيد هذا الرأى، وأن تكشف عن العلاقة بين المستعار والمستعار له فى كل منها:

(١) ص: ١١٢ — ١١٤.

فنى البيت الأول :

يادهر ! قوم من أخدعيك ، فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

يشبه أبو تمام الدهر بإنسان متكبر ، يصعر للناس خده ، ويزعجهم بسفاهته وخرقه . وهو فى هذا غير مخطىء ولاملوم ، فالناحية التى نظر منها إلى الدهر يمكن أن تمثله على هذه الصورة فهو ينظر إليه من ناحية صروفه وتقلبات أحداثه ، فيراه كما يراه الناس — يخبط فى أكثر الأحيان على غير هدى يرفع من يستحق الاتضاع ؛ ويضع من يستحق الارتفاع ، ويحسن حيث تكون الإساءة أحجى وأعدل ، ويسىء حيث يكون الإحسان أولى وأحكم، ليس له سنن مرسوم ، ولاغاية معروفة . وتلك سمات وخصائص جديرة أن تخطر بالبال صورة الرجل يركب رأسه ، ولا يبالى عاقبة عمله تيها وتكبرا ؛ لما بينه وبين الدهر من ضلال السعى ، وخطل الرأى .

وإذ كانت هذه النزوات الخرقاء تثير فى النفوس الأبية الشاعرة ألما وسخطا ، وتدفعها إلى الاحتجاج والإنكار — صاح أبو تمام بألسنة هذه النفوس صيحة الحنق والغيظ : يزجر الدهر عن التمادى فى غلوائه ، ويأمره أن يضع من تعاليه، ويقوم من عوج أخدعيه .

تلك هى الخطرات الفكرية ، التى نظن أنها تتابعت فى ذهن أبى تمام ، وهو يستلهم وحى هذه الفكرة ، ويعالج خيالها وتصوير مشاهدها . وهو حين عبر عن الكبر بعوج الأخدعين — لم يخالف التعبير الشائع فى هذا المقام ، فالأخدعان كما لا يخفى عرقان فى صفحتى العنق ، والعرب تكنى عن الكبر بتصعير الخد ، أى إمالته . وإمالة الخد يتبعها طبعا ميل الأخدعين . ثم إن لشاعرنا بعد هذا أسوة فى الفرزدق ، إذ يقول :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

وفى البيت الثانى :

ألا لا يمد الدهر كفا بسيء إلى مجتدى نصر ، فتقطع من الزند

يشبه الدهر بإنسان ، ويجعل له يدا وزندا . وما هو هنا بمخطىء ولا ملوم أيضا ؛ فالناس ينسبون دائما أحداث الحياة إلى الدهر ، والجوارح هى التى تباشر العمل ، أو تهيء أسباب حدوثه . واليد فى هذا السبيل أكثرها بلاء ، وأبلغها أثرا : بها يكون الأخذ والرد ، والتقديم والتأخير ، والبطش والدفاع ، وكثير غيرها والممدوح كما يتصوره الشاعر فى البيت ـ عصمة لمجتديه ، يدرأ عنهم عاديات الدهر ، بفضل حمايته لهم ، وحسن صنيعه عندهم ، فهل عليه إذا أن يشبه الدهر بالإنسان ، يستطيع البطش بغيره ؛ أن كان كلاهما قادرا على الإيذاء والمضارة ؟ وهل عليه أيضا أن يشبه الوقاية من مصائبه بقطع يده ؛ أن كانت الوقاية وقطع اليد كلاهما مانع من وقوع الأذى ؟ كلا ، لا عليه فى هذا ولا ذاك ؛ لوجود العلاقة بين المشبه والمشبه به فى الاستعارتين جميعا .

وبالنظر فى صور الاستعارات الباقية على هذا النحو ـ نجد العلاقة حاصلة بين المستعار والمستعار له فى كل منها .

وبعد ، فهل كان أبو تمام فى استعارة خصائص الحق لما ليس فيه حياة ـ بدعا من الشعراء ، أو كان واحدا منهم ، يساير مثلهم عرفا متبعا ، ويأخذ بتقليد سبق إليه ؟ إن النصوص الأدبية متظاهرة الدلالة على أن هذا الضرب من الاستعارة ليس شاذا فى نوعه ولا نادرا فالقرآن الكريم حجة الله الخالدة ومعجزة البيان العربى ـ يحتوى كثيرا من أمثلة هذه الاستعارة ، كقوله عز من قائل: «إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم» وقوله : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار »وقوله :«ولما سكت عن موسى الغضب » وقوله:« تكاد تميز من الغيظ» وهذا لبيد يجعل للشمال يدا ، وللقرة زماما فى قوله :

وغداة ريح قد وزعت[1] وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها

(١) وزعت : كففت . والقرة : البرد ، يقول : كم برد كسرت حدته باطعام الطعام

وأعرابية تجعل الجبال تفرق ، والذعر يخاف ، حيث تقول :

وإذا غضبتَ تصدعت فرقاً منك الجبال وخافك الذعر

وجاهلي من بني ضبة يجعل الأيام وحشا ، يتعرق العظام ، إذ يقول :

فمن تلك أيام الزمان حميدة لديه فإني قد تعرقن أعظمى

وهدبة بن خشرم يجعل للحرب نواجذ تبديها ، حيث يقول :

وقد علمت سليمى أن عودى على الحدثان ذو أيد صليب
وأن خليقتي كرم ، وأنى إذا أبدت نواجذها الحروب
أعين على مكارمها ، وأغشى مكارهها ، إذا كع (١) الهيوب

وغيره يجعل للنوم طعما يذاق ، فى قوله :

لعمرى لئن كنتم على النأى والغنى بكم مثل ما بى ، إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ولا ساغ لى بين الجوانح ريق

وليلى الأخيلية تجعل القنا مرة ظامئة تسق فتروى ، ومرة لبونا يحلب الفرسان لبنها فى ساحة الوغى ، وذلك حيث تقول :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة أعدلها قبل النزول قراها
أعدّلها مسمومة فارسية بأيدى رجال يحلبون صراها (٢)

بل إن العرب لتشبه الحاصل المحسوس بالمتخيل الموهوم ، أو تستعير له هيئته الخرافية ، كقوله :

---

(١) كع : ضعف وجبن

(٢) السجال : جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة فيها ماء . الرز : الصوت تسمعه من بعيد . الصرى : بقية الشىء . وابن صرى : متغير الطعم .

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسمومة زرق كأنياب أغوال؟

وكقول الأشتر النخعى :

بقيت وفرى ، وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن هند غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا تعدو ببيض فى الكريهة شوس (١)

بل إن طبيعة البيان العربى لا تأبى فى ظاهر القول أن تجعل لله بعض مايستحيل عليه ، كاليد . والعين ، والاستواء على العرش .

على أن مجرد مجىء الاستعارة مطابقة لقوانين الصناعة المقررة — لا يستلزم حتما أن تكون سائغة أو مستملحة ، كما قد يفهم من كلام الآمدى السابق ، فليس هذا كل مايطلب به النجاح فيها ، ولكن هناك اعتبارات أخرى ، لها فى هذه السبيل عمل كبير . هناك روعة الخيال ، وطرافة الفكرة، وإصابة المعنى، وصدق التمثيل . وهناك حسن العرض ، والتوفيق فى انتخاب الألفاظ وتأليف العبارة ؛ لتكون الألفاظ مطابقة للمعنى ، والعبارة جارية على السنن القويم ، لا ضعف فيها ولا تعقيد ، ولا غرابة فيها ولا اعتساف . فالمعنى الكريم ولا ريب يجنى عليه اللفظ المعيب ، والعبارة المدخولة ؛ فإذا هو نازل عن رتبته، متخلف عن أنداده ، والمعنى الشائع المبذول قد يجدى عليه اللفظ المتخير ، والعبارة المحكمة ، فإذا هو فخم مهيب .

هذا مثلا قول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل (٢)

ينطوى على معنى جيد ، لكن تخلف العبارة وارى من حسنه ، ووكس

(١) الشزب : جمع شازب ، وهو الضامر اليابس : شوس : جمع أشوس ، وهو الشديد الجرىء فى القتال .

(٢) يريد أن أغطية العيون إنما سميت جفونا ، لأن العيون تعمل عمل السيوف

من قيمته ، وصرف عن النظر فيه .

وهذا قول أبي تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ليس معناه طريفا ، ولا عميقا ، لكن جلال العبارة ، وجهارة الألفاظ ، خلعتا عليه ، فإذا هو كما ترى - رزين متوقر ، يشغلك منظره عن مخبره ، فتقنع بما سبق منه إلى نفسك ، غير متهم له ، ولا مستريب منه .

وهناك الذوق الأدبي ، وهو حاسة وجدانية ، يقدر بها الإنسان على المفاضلة والتمييز بين الآثار الأدبية ، ويتقي بها التورط في إخراج مالا يستساغ منها ، وظيفته في الأدب كوظيفة الذوق الحسي في الطعام ، وهو ككل ملكة مكتسبة - يزكو في الفطرة السليمة ، ويصلح بالرياضة والتثقيف القويم ، فإذا هو في تقديره معيار دقيق ، وفي حكمه فيصل عدل ، يحكم بلا محاباة ولا جور . ولقد تتهيأ للكتابة أو الشعر ، فيقع لك منهما نمط سليم ، لاعوج فيه ولا خطأ ، لكن ذوقك مع ذلك لا يتقبله ، ولا يقرك على إذاعته ، وأنت لا تعرف لذلك سببا ولا مأتى : فتحار في أمرك ، ويدركك بعض الضيق ، وربما بدا لك حينئذ أن لا مخلص من هذه الحال إلا الخديعة تأخذ بها ذوقك ، لعلك بالغ منه ما تريد من الوفاق والكف عن الاعتراض ، فلا يزيد على هذه المحاولة إلا تشبثا وإصرارا ، ثم لا يزال بك يردك عما تريد ، حتى تعرض عنه ، أو يثوب إليك طبعك ، وتتفتح نفسك للإنتاج ، فترتفع إلى طبقتك ، ويواتيك نمطك المعتاد فإذا هو عنه راض ، وعليه مقبل ، وإذا أنت تدرك أن تمرد ذوقك عليك لم يكن تجنيا ولا مكابرة ، ولكن ذهابا بك عن النزول عن طبقتك ، والجري في غير ميدانك . وتختلف أذواق الناس طوعا لاختلاف البيئة والثقافة وما إليهما ، حتى ليكون الشيء في بعض الأذواق سائغا مقبولا ، وهو في البعض الآخر غثا مرذولا . ولكن هناك مع ذلك حدا من الكمال تلتقي الأذواق عنده وتتفق

على إساغة مايبلغه ، والاشمئزاز مما يقصر عنه ، وفصل الخطاب على أى حال للذوق العام وحده . والذى يعنينا من هذا كله أن الذوق الأدبى لاغنى عنه للأديب المنتج ، والأديب الناقد جميعا ، فمن حرمه فقد حرم حاسة الإدراك الفنى والتقدير الصحيح ، لما ينتجه ومايعرض عليه . والاستعارة التى لايسيغها الذوق فاشلة مردودة ، وإن كان حظها من الاعتبارات الأخرى موفورا .

هذا مثلا قول المتنبى :

شرف ينطح النجوم بروقيــه ، وعز يقلقل الأجيالا

وقول أبى تمام :

وتقاسم الناس السخاء مجزأ فذهبت أنت برأسه وسنامه
وتركت للناس الإهاب ومابقى من فرثه وعروقه وعظامه

فتصور الشرف العالى فى البيت الأول على هيئة حيوان نطاح، يعالج النجوم نطحا بقرنيه ، لعله يزحزحها عن منازلها ، فيتخذ له مكانا بينها أو أسمى من منازلها — تصور ناب ، لا أثر فيه لشىء من لطف الحس أو سلامة الذوق ، أو روعة الفن . وأشد من هذا نبوا وسوء تخيل أن يتصور أبو تمام توزع السخاء فى الناس ، وتفاوت حظوظهم منه ، على هيئة بعير ذبيح ، يطيف الناس به فى تأهب وضراوة ، ولا يكاد قصابه يفرغ منه تقطيعا وتفصيلا، حتى ينقضوا عليه ، يتناهبونه غلابا واقتدارا ، فيذهب الممدوح من بينهم بخيرمافيه: الرأس والسنام ، ويترك سائره لسائرهم ، يقتتلون فيه ويختصمون ، ثم تنجلى المعركة ، فإذا لهذا فرثه ، ولذاك عروقه ، وللآخر عظامه . فمن ذا الذى لاتستنفره هذه الصورة ؟ وأى امرىء لايأخذه منها التقزز والاشمئزاز ؟ إنى حين أقرأ هذين البيتين - لأكاد أهم بثيابى أضمها إلى ، مخافة أن يصيبها أذى من قذر هذا السخاء ، كما يصوره لنا ذوق أبى تمام .

واعتبار وجدانى آخر ، وهو طابع الأديب فى نتاجه الأدبى ، وشخصيته

الفنية المتميزة بخصائصها وسماتها ، تشع عليك روحا كالذى تشعه شخصية الصاحب على صاحبه ، من سمته وبناء جسمه ، ومن أقواله وحركاته ، ومن نبرات صوته وطريقة أدائه ؛ فتسكن إليه أو تتبرم به ، وتنبسط له أو تنقبض عنه ، وتشعر بالعطف عليه أو بجافاته ، وبالاهتمام به ، أوقلةالا كتراث له ، وتراه ثقيلا متحذلقا ، أو ظريفا خفيف الروح . وهكذا فالمتنبى مثلا يخلق حولك جوا غير الذى يخلقه أبو نواس ، ويثير فى نفسك من الإحساس غير الذى يثيره أبو نواس كذلك . ونحن إنما نكون آراءنا فى آثار الأديب ، ونصدر أحكامنا عليها بين هذا الجو ، وهذا الإحساس ، لامفر ولافكاك .

وبعد ، فما للآمدى ومن لف لفه ، ينقمون من أبى تمام أمثال الاستعارات التى قدمنا وإنهم ليعلمون ولاريب — أن لها نظائر وأشباها فى كلام العرب ؟ أكبر الظن أنهم لاينقمونها منه لمجرد استعماله إياها ، وإنما ينقمون منه الاستكثار منها ، والتوسع فى استعمالها ، وورود بعضها فى أساليب لاتتفق مع أساليب العرب المعتادة فى نظائرها .

قال الآمدى : «وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات ، متفرقة فى أشعار القدماء كما عرفتك ، لا تنتهى فى البعد إلى هذه المنزلة ، فاهتبلها[١] ، وأحب الإبداع والاغراق فى إيرادأمثالها ، واحتطب ، واستكثر منها »[٢].

وقال فى موضع آخر ، بعد أن أورد قول زهير : «وعرى أفراس الصبا ورواحله : لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقال : ركب هواه وجرى فى ميدانه ، وجمع فى عنانه ، ونحو هذا ـ حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس ، وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله ، وكانت هذه

(١) غير واضحة الخط فى الأصل ، والكلمة التى أثبتناها هنا من أشبه الكلمات بها ، وأليقها بالمقام

(٢) ص : ١١٧

الاستعارة أيضا من أليق شيء بما استعيرت له . . فهذا مجرى الاستعارات فى كلام العرب . وأما قول أبى تمام : ولين أخادع الزمن[١] الأبى ، فأى حاجة إلى الأخادع حتى يستعيرها للزمن ، وكان يمكنه أن يقول : ولين معاطف الدهر الأبى ، أو لين جوانب الدهر ، أو خلائق الدهر ، كما تقول : فلان سهل الخلائق ، لين الجوانب ، وموطأ الأكناف ؛ لأن الدهر قد يكون سهلا وحزنا ، ولينا وصعبا ، على قدر تصرف الأحوال فيه ؛ لأن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال فى هذا الموضع وكانت تنوب عن المعنى الذى قصده»[٢]

فهو يتقبل من زهير أن يجعل للصبا أفراسا ورواحل ، ولا يتقبل من أبى تمام أن يجعل للدهر أخادع . وشفاعة زهير عنده أنه فى استعارته يساير المعروف المتداول من أساليب العرب ، حين تصف ذا الصبا وتتحدث عنه . وذنب أبى تمام إليه أنه لا يساير هذا المعروف المتداول من أساليب العرب حين تصف تقلبات الدهر ، وتتحدث عن تصرف الأحوال فيه ؛ لأنه استبدل الأخادع بالمعاطف ، والجوانب ، والخلائق ، وكان فى إحداها غنى عنها ، وبدل خير منها .

وعندى أن كلمة الأخادع لا بد منها للصورة التى يريد أبو تمام عرضها فى كلامه ، وأن أى كلمة من التى اقترحها الآمدى لا تساعد على تمثيل هذه الصورة تمثيلا محدودا . فهو إنما يتخيل الدهر فى هيئة الأبى المتعاظم ، وأظهر مظاهر الإباء والتعاظم تكلف صلابة الجسم ويبس التجاليد . والعنق ولا ريب — أظهر من سواه تأثرا بذلك ، فهو أحرى أن يقيد النواظر ، ويثير الانتباه ، يستأثر بالوصف قبل غيره . وإذا يكون الأشبه بالمعنى ذكر الأخادع ليس غير . أما المعاطف ، أو الجوانب ، أو الخلائق ، فإنما تؤدى المعنى على التبعية والشيوع .

(١) رواه فى الصفحة ١١٢ : ولين أخادع الدهر الأبى.

(٢) ص : ١١٦

فأبو تمام ونقاده على خلاف فى فهم الاستعارة ووظيفتها وطريقة صنعها ، هو يفهمها أسلوبا من أساليب الأديب نفسه ، يعبر بها عن معانيه كما يتصورها ويتأثر بها ، فهو إذا غير مقيد فى تكوينها إلا بما يكفل سلامتها من الخطأ ، ومجاراتها للذوق الأدبى العام . وهم يفهمونها أيضا أسلوبا من أساليب الأديب للتعبير عن معانيه ، لكن مجاراتها لأساليب التعبير المأثور عن العرب فى مثل المقام الذى تستعمل فيه — تعلى من قيمتها ، وترفع من قدرها ، لأنها تكون إذ ذاك أسوغ فى الذوق ، وأدخل فى لباب البيان العربى الخالص .

وعندى أن أبا تمام على الحق فيما ذهب إليه . فإنما الأديب الملهم نجى الطبيعة ، وحامل رسالتها إلى الناس : يطلع أسرارها ، ويكشف حقائقها ، ويتذوق جمالها ، ثم يترجم ذلك كله كما يتمثل له ، ويعمل فى نفسه ، كلاما مبينا وفناً رائعا ، عليه طابعه الخاص ، وسمته المتميز . وهيهات أن يتاح له ذلك على وجهه ، إلا إذا كان فى انتخاب الألفاظ ، وتأليف الأساليب ، مثله فى تلقى المعانى ، وتخيل الصور ، حرا طليقا من التقليد والمحاكاة . وإلا كان صورة لغيره معادة ، أو تمثالا له جامدا ، لايتأثر بزمان ولامكان . على أن الكلمة قد تكون فى موضع ما رشيقة معجبة ، ثم تكون هى نفسها فى موضع آخر سمجة كريهة [1] . لأن خصائصها من الرشاقة ولطف المدخل وقوة الأسر — لاتبدو على جليتها إلا حيث تحل بالموضع الذى يقتضيها ويليق بها ؛ لأنها إذ ذاك تكون مطلوبة مرغوبا فيها ، فترحب بها جيرتها ، وتتيح لها من أسباب التمكن وفضل المؤازرة ما يعين على جلاء المزية ، وبلوغ المرتبة ، ولا كذلك الكلمة تساق سوقا إلى غير موضعها وتكره قسرا على المقام فيه ، فإنها حينئذ تبدو كاسفة متضائلة بل باردة متطفلة ، ولا يغنى عنها رشاقة ذاتها ، ولا يشفع فيها حسن موقعها فى مقام آخر . فالنقل من أساليب الآخرين على ما فيه من

---

(١) راجع دلائل الاعجاز ، ص : ٣٨

المثالب قد يوقع فى التعسف وسوء الاستعمال .

على أن أبا تمام كان يغلو بعض الأحيان فى التمسك بمذهبه ، فيقع فى الشذوذ من حيث يقصد أو لا يقصد ، ولكنه يستهدف للملام على كل حال ، لا يغنى عنه تكلف ولا محال . روى صاحب الطراز أن رجلا سمع قول أبى تمام :

لاتسقنى ماء المــلام ، فإننى   صب ، قد استعذبت ماء بكائى

فبعث إليه بقارورة ، وقال : هب لى شيئا من ماء الملام ، فقال أبو تمام : ابعث لى بريشة من جناح الذل ، حتى أبعث إليك ماء الملام (١)

يشير بذلك أبو تمام إلى أن إضافة الماء إلى الملام فى البيت، كإضافة الجناح إلى الذل، فى قول الله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، كلتاهما من قبيل إضافة الشىء الى غير ماهو له . ومعنى هذا أن أبا تمام فيما فعل — لم يكن يساير الذوق العربى وينظر إليه على علاته ، ولكنه كان يسايره وينظر إليه فى أعلى مثله ، وأبهر صوره .

والواقع أن التركيبين سواء من حيث ينظر إليهما أبو تمام ، لكنهما يختلفان جد الاختلاف من الناحية الفنية ، أى من الناحية التى تتفاضل فيها أقدار الكلام ، وتتفاوت قيمه فى معرض البيان ، فإن إضافة الماء إلى الملام من إضافة الشىء إلى الشىء لا مناسبة بينهما ولا علاقة؛ إذ الماء شراب سائغ مستعذب ، فيه منافع للناس ، وبه يكون الاعتصار ونفى الغصص . أما الملام فقول مستكره أليم ، يعالج الملوم به لعله يرجع عن هواه ، فيتكلف الاستماع له ، والإقبال عليه ناقما متململا . وقد يعرض عنه جملة ، ويأبى الاستماع له بتاتا . وأين إضافة الماء إلى الملام هنا من إضافته إلى الحياة مثلا فى قول عنترة :

لا تسقنى ماء الحيــاة بذلة   بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

نعم ، كان ممكنا أن تستساغ من أبى تمام هذه الإضافة لو أنه عرض الملام

(١) الطراز : ١ : ٣٠

فى صورة الكرية المستعذب ، تنفر النفس منه لذاته ، لكنها تحبه وترضى عنه لما يلابسه ويقترن به ، من ذكر الملوم فيه ، والتحدث عن بعض شأنه ، كقول غيره :

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك ، فليلمنى اللوم

لكن أبا تمام آثر عرضه فى صورته المعتادة ، أو الشبيهة بها ، فهو لم يزد على أن نهى لائميه عن لومه ، وآيسهم من الاستماع لحديثهم فيه ؛ لأنه غنى عن مائه بماء بكائه ، فلم تبق به حاجة إليه ولا له فائدة منه . ولعل الذى أغرى أبا تمام بهذه الإضافة ، وسهل عليه إساغتها مع مافيها ، هو إرادة المشاكلة بين ماء البكاء فى الشطر الثانى وماء الملام فى الشطر الأول ، أى أنه أراد أن يضيف إلى الصيد عصفورا ، فأفلت منه عند ليب ،

أما الشأن فى الآية الكريمة فغير الشأن فى البيت ، لا خلاف فى هذا ولا مراء ، فالإضافة فى الآية بارعة غاية البراعة ، وفيها من أسرار البيان ، ولطف الإشارة ، وعمق المعنى ودقته فيض غزير ، هيهات أن تسعف العبارة فى بيانه ، أو تضطلع الألفاظ بمحاولة تصويره ، كما يتمثل للنفس ، ويتأثر به الوجدان ، لكن علينا مع ذلك محاولة بيانه ، وتكلف تصويره جهد الطاقة .

فالمعروف أن مبعث التعاطف عند الحيوان هو الغريزة ، كما فطره الله عليها ، وأودعه إياها ، لم تشبها شائبة ، ولم يمسها تغيير من تربية أو نحوها ، فهى فيه أشد قوة ، وأصفى جوهراً ، وأصح فطرة . وللطير دون سائر الحيوان أجنحة ، يرأم بها فراخه ، ويضمها إليه حماية واحتضانا ، كما يصطنعها فى مآرب أخرى . فعطفه على صغاره فريد فى نوعه ، مؤثر فى مظهره ، بليغ فى دلالته . وهو إذا جدير أن تضرب به الأمثال ، وأن يتبوأ مكانه بين صور الكمال ، التى يسمو إليها الخيال فى الاستعارة والتشبيه .

وقد جرى القرآن الكريم فى الحث على الترفق والرحمة . قال تعالى : «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين»فأضاف الجناح إلى النبى إضافة مباشرة . يأمره (سبحانه) أن يكون للذين اتبعوه من المؤمنين كما يكون الطائر لأفراخه ، رحيما بهم ، حدبا عليهم ، يخفض لهم جناحه ، ويمدلهم أسباب الإقبال والتواد ، فيسكنون إليه ، ويتقبلون دعوته بقبول حسن ، يدخل الطمأنينة فى قلوبهم ، ويذهب عنهم قلق التحول ، وحيرة الانتقال التى يجدها كل حديث عهد بدين أو مذهب ، ولا سيما الأديان والمذاهب الجديدة . التى لم تتضح بعد مزاياها ، ولم يتبين الناس نتائجها كاملة . نعم ، هذا مايأمر الله به نبيه الكريم ، فى هذه الآية الكريمة ، فإنما يخفض الطائر جناحه عن وضعه ، حين يريد أن يحمى فراخه ، ويضمها إليه .

وفى الآية التى اتخذها أبو تمام إمامه وهاديه ، فى إضافة الماء الى الملام يقول الله تعالى :« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، فأضاف سبحانه الجناح إلى الإنسان هنا ، كما أضافه إلى النبى هناك ، لكن الإضافة هنا ليست مباشرة للإنسان ، بل لشىء يراد على اصطناعه ، ورياضة نفسه عليه ، وهو الذل . ومعنى ذلك أن الله (عز وجل) لايريد الإنسان فى معاملة أبويه على خفض الجناح لهما وكفى ، ولا على التذلل لهما وكفى ، أيا ما يكن هذا التذلل ، وعلى أى صفة يكون . كلا ، ولكنه (سبحانه) يريده على ماهو أكبر من هذا شأنا ، وأبعد منالا ، وأصعب علاجا . يريده على هذا النوع الخالص المستسلم من التذليل ، تبعثه الرحمة ، ولا تشوبه شائبة هوى أو مأرب .

أما هذا التذلل المدخول ، أوالمتكلف المصنوع ؛ تبعثه الرغبة ، أو يخالطه التحفظ والزماتة — فلا يصل إلى الله عملا صالحا كامل الأسباب ، يغمره

الرضوان والقبول . وتلك ولا شك ـ غاية الغايات فى المرحمة ، وقصارى مايمكن أن يصل إليه طوق البشر فى الانقياد والخضوع .

ونحن بعد هذا واجدون كل كلمة فى الآية — يقتضيها المقام ، ويشتد فى طلبها . فليس أليق بمقام الحث على الترفق والعطف من كلمات الخفض ، والجناح ، والذل ، والرحمة ، وليس أصلح هنها لتأليف أبرع صوره ، وتمثيل أبلغ معانيه .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

الاتجاهات الحـــــديثة

فى الشعر العـــــــربى

للأستاذ سيد قطب

تمهيد : حضرات الأساتذة والإخوان (١).

جئت الليلة لأحدثكم عن الاتجاهات الحديثة فى الشعر العربى ، وستسمعون منى كثيراً مما يخالف آراء الكثير منكم وهذا – وحده – هو الذى يشجعنى على أن أبذل من وقتى وأشغل من وقتكم ساعة وبعض ساعة ، فلو أننى جئت لأحدثكم بما يوافق آراءكم ورغباتكم لكان ما سأشغلكم به تكراراً لامعنى له . وأنا ممن يؤمنون إيمانا جازما بأن أعمارنا القصيرة ، وساعاتنا المحدودة فى هذه الحياة العاجلة أقصر وأثمن من أن تضيع فى التكرار ، وكل مطلع شمس لايغذينى بجديد ، ويعوضنى عن اليوم الفائت من عمرى عمقا وسعة فى فهم الحياة هو خسارة لاتعوض .

* * *

على هامش النقد : وقد أسميت حديثى معكم الليلة « على هامش النقد » لأننى أشفق أن أسميه نقداً وأستكثر على نفسى لقب « الناقد » فى مثل هذا البحث الخاطف ، فالنقد فى هذه الأيام لم يعد سهلا معبد الطريق كما كان فى الأزمان الخالية ، يوم كان يكفى للنقد الأدبى تجويد اللغة نحواً وصرفاً ، والاطلاع على مأثور الشعر والنثر ، وحفظ الروايات والأسانيد . . . وما إلى ذلك من أدوات اللغة والبيان .

(١) هذا نص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ بالنادى مساء الخميس ١٠ أبريل سنة ١٩٤١

أجل لم تعد هذه الأدوات كافية للناقد الأدبى فى هذا الزمان ، بل لم تعد كافية لمتذوق الأدب الذى لا يتصدى للنقد ؛ لأن ميادين المعرفة قد اتسعت ، وشواطئها قد انفسحت ، ولأن ألوان الثقافة قد تعددت ، وروافدها قد كثرت ، وبات الأديب ناثراً كان أم شاعراً – إنسانا مثقفا تصب روافد المعرفة فى نفسه ، فتنضح على أدبه ، وأصبحت اللغة والألفاظ والأساليب وصور البيان بعض أدواته لا كلها ، وبعضها الأسهل الأرخص السطحى ، لا بعضها الأصعب الأنفس العميق .

وإذا كان هذا شأن الأديب المنتج ، فشأن الأديب الناقد لا يقل عنه إن لم يزد ، وأنا لا أبيح لنفسى أن أتصدى لنقد أديب ليست لدى أمثال وسائله من المعرفة كافة والثقافة عامة ، ولو فى الموضوع الذى أتصدى لنقده وحده . وإلا كنت منتجا وكنت ظالما لنفسى قبل أن أكون ظالما للأديب المنقود .

وإنى لأستطيع أن أسرد لكم صفا طويلا من ألوان العلوم والمعارف التى أصبحت اليوم لازمة للأديب الذى يريد لأدبه الحياة ، والتى لا بد منها للناقد بطبيعة الحال . وليس عجيبا بعد ما بلوت النقد لبعض إنتاج الأدباء والشعراء فى هذه الأيام أن أقول لكم : إن من أدوات الناقد الصحيح علوما ومعارف لم تكن لها صلة بالأدب – ولا سيما الأدب العربى – قبل هذا الزمان . . . فهل تصدقون أننى كنت أجد فى دراساتى لعلم النفس الحديث أداة ألزم لى فى نقد الشعر من جميع أدوات اللغة والبيان ؟ وهل تصدقون أن علم الأحياء وبعض نظريات بناء الكون الجديدة ونظريات الإشعاع والمادة وما إليها كانت تجدى على فى توسعة آفاق الإنتاج الأدبى وآفاق النقد الفنى أضعاف ما أجدت على دراساتى الأدبية البحتة فى القديم والجديد ؟ . أو لا ترون معى أن الدراسة المتعلقة بنشأة الكون والأحياء ثم دراسة طبيعة هؤلاء الأحياء وما إلى ذلك جديرة بتوسعة النفس وتعميق الاحساس ؟ وأنك حين

تدرس مذهبا فى تسلسل الأحياء كمذهب دارون مثلا وتحس بالقرابة بينك وبين كل حى على سطح هذه الأرض، وتشعر أنك لست مفردا فيها بجنسك الإنسانى، وأن هناك وشائج حية بينك وبين الطير السابح فى الجوار، والسمك السارح فى الأعماق بل بينك وبين النمال وما هو أخفى من النمال، يتفتح قلبك عن أحاسيس ومعان لا تخطر على نفسك وأنت جاهل لمثل هذا المذهب فى الأحياء.

وأنك حين تدرك مثلا أن ذرات المادة إن هى إلا إشعاع كهربى مندمج وأن الذرة المتكتلة هى نوع من الكهرباء فى صورة من الصور وأن جسمك كله ما هو إلا أشعة كهربائية فى شكل من أشكالها. حين تحس بذلك ألا تتسع آفاق الاحساس بالكون ويزخر شعرك بوصف هذه الآفاق الجديدة؟

والأدب عامة ـ والشعر خاصة ـ تعبير جميل عن إحساس صادق ـ وإذا فقد الركن الأول فقد تعد شيئا كثيرا، أما إذا فقد الركن الثانى فقد فقد كل شىء، ولم يعد شعراً أصلا. والتعبير الجميل فى حاجة إلى الذوق وإلى الدراسات اللغوية والأدبية، والاحساس الصادق فى حاجة إلى سجية موهوبة لا يغنى المران شيئا فى خلقها، وإلى تغذية هذه السجية واطلاعها على الآفاق الواسعة من مجالى الكون والطبيعة فى الفنون والعلوم والفلسفات. والناقد يحتاج إذن بجانب دراساته اللغوية والأدبية إلى ذوق سليم ثم إلى دراسات علم النفس بأوسع معانيها وسيظل نقده ناقصا أو زائفا — وهو يدرس تعبيراً عن إحساس — مالم يكن بصيراً بالنفس فى تقلباتها وأطوارها، لأن التعبير إنما هو صورة الإحساس. والإحساس حالة نفسية، فلابد من دراستها على هدى الدراسات النفسية.

وكذلك قد يحتاج الناقد إلى الدراسات العلمية البحتة والدراسات العقلية المنوعة التى تكون الروافد والجداول فى هذا العصر للمعرفة الانسانية، وقد ظهر اشعاع

النظريات العلمية والفلسفية فى الأدب ، لأن النفس الإنسانية محوطة بهذه النظريات من كل جانب فى العصر الحديث فلا بد أن تتأثر بها ، ولا بد أن يظهر هذا التأثر فى إنتاجها ومتى ظهر فى الإنتاج الأدبى كان ناقدهذا الإنتاج فى حاجة إلى ثقافة واسعة ، وإلا وقف قاصرا عن الفهم قاصرا عن الحكم.

ولست أعنى بتأثر الشعر بالمذاهب الفلسفية والعلمية ، أن ينظم الشاعر حقائق هذه الفلسفات والعلوم شعرا ، إنما أعنى أثر هذه الثقافات فى توسيع آفاق المعرفة وتوسيع آفاق الإحساس بالكون والحياة وآفاق الشعور بنوع الصلة بين الشاعر والكون.

على أن امتزاج الثقافات العقلية بالأدب ليس شيئا جديدا ، وإنما الجديد هو الالتفات إليه وتقديره حق قدره . وإلا فقد كانت النهضة العلميةوالفلسفية فى العصر العباسى ظاهرة الأثر فى إنتاج الأدباء فى ذلك الزمان . ولست أستثنى من هذا التأثر دواوين الشعراء ، فالمذاهب الفلسفية من معتزلة وشيعة وصوفية وسواها وجدت طريقها إلى شعر الشعراء ، وكذلك وضحت فى الشعر تأثيرات دراسة الفلك والهندسة والكيمياء ، وانبثت أسماء المخترعات الحديثة والمناظر والأدوات والاشياء . غير أن هذا كله كان فى الشعر العربى واضحا بشخصه ورسمه لم يهضمه ولم يصبح جزءا غامضا من كيانه لأنه كان جديدا على حس الأعراب لم تمثله نفوسهم ولم يرسب فى أعماق شعورهم . أما النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية فى هذا الزمان فهى قطعة من الحياة الفكرية والنفسية للأديب الحديث ، تطبع آثارها فنه من وراء ستار ، وتحتاج فى نقدها إلى ناقد مثقف صارت الثقافة جزءاً من تكوينه النفسى والعقلى.

والنتيجة المحتومة لهذه المقدمة ، أن أولئك الذين تتكون ثقافتهم من اللغة والأدب البحت ليسوا أكفاء للنقد فى هذا الزمان ، ولا يحق لهم أن يتصدوا

لهذه المهمة إلا فى تواضع وحذر ، وفى بعض إنتاج الأدباء دون البعض الآخر ، لأنهم لم يستوفوا جميع أدوات الناقد الحديث . وعليهم أن يفتشوا فى ثقافاتهم ويعيدوا اختبار قدرتها على الحياة فى هذا العصر ، ثم يكملوا هذه الثقافات بكل جديد ، وكلما بعد هذا الجديد الذى يكملون به ثقافتهم عن اللغة وعن الأدب البحت ، كان أعود عليهم بالنفع وأجدى فى استكمال أدواتهم للتذوق والنقد .

وعلى سبيل المثال أذكر أن شاعرا كبيرا قال قصيدة سماها «سحر الطير» جاء فيها :

كل إلف له من الطير إلف   هكذا تجمل الحياة وتصفو
أمل يرتقى وحب يناجى   ولسان يشدو وقلب يرف
بك خفة الجناح يأيها الطير   وما كنت بالجناح تخف
لطف روح أعار جنبيك ريشا   فمن الروح لا من الريش لطف
ليس ينميك للسماء جناح   بل غناء عن الضياء يشف
إن مضى الناس يعجبون قديما   كيف تعلو عجبت كيف تسف
ثقلة فى الحياة لم ينج طبع   من عراقيلها ولم ينج عرف

قال الشاعر هذه القصيدة معتمدا على طبيعة إحساسه بقوى الحياة الكامنة التى تصرف المواد وتحركها ، وعلى يقينه اللدنّى بأن فى طبيعة الحياة ميلا كامنا إلى التسامى والطلاقة والتحرر من قيود الضرورة وثقلة المادة . ومعتمدا على ثقافته فى علم وظائف الأعضاء الذى يساعف هذا اليقين ويؤيده حين يقرر أن « الوظيفة تخلق العضو » فوظيفة الطير فى الطائر هى التى تخلق الجناح ، ووظيفة الابصار فى الإنسان هى التى تخلق العين ، وليس الجناح هو الذى يخلق الطيران ولا العين هى التى تخلق الإبصار . وإنما هما أداتان متغيرتان لوظيفتين ثابتتين من وظائف الحياة .

ولكن ناقدا من أساتذتنا الفضلاء جعل يتهكم ويتندر على هذه الأبيات وعلى

القول بأن لطف الروح هو الذى أعار هذا الطير ريش الجناح . وجرعة علمية واحدة من العلوم الحديثة كانت كافية لصحة الحكم فى هذ الموضوع .

أسس النقد الجديدة : لم يعد أساس النقد فى الشعر الحديث أن هذا مما تقول به العرب أولا تقول . فالأديب : إنسان أولا ، ثم هو ينطق باللغة العربية ثانيا . فالأساس الأول للنقد أن تسأل هكذا : آلانسان يقول هذا أم لا يقول ثم : أهذا الذى يعبر به صحيح أم غير صحيح من ناحية تصريف اللغة وتركيبها ؟

وهنا مفرق الطريق بين المدرسة الحديثة والمدرسة القديمة فى هذه الأيام وقد كان فى كل عصر مدرستان حتى فى صدر الإسلام وعصر بنى العباس ، لأن الأدب واللغة فى نمو دائم ، وتجدد مستمر ، ولا بد من المجددين والمحافظين فى كل زمان ومكان .

تقف المدرسة القديمة اليوم بطرق التعبير عند نهضة اللغة فى العصر العباسى وتسقط من حسابها الف سنه كاملة مرت على اللغة بعد هذا التاريخ ، كما تسقط من حسابها شيئا أهم من الزمن وهو الفروق التى لا جدال فيها بين جنسية الناطقين باللغة العربية فى الممالك المختلفة ، ومميزاتهم العقلية والنفسية ، التى لا بد أن تترك أثرها فى طريقة التعبير أى فى الأسلوب .

وترى المدرسة الحديثة أن اختلاف الأساليب بين أمة وأمة من الناطقين باللغة الواحدة ضرورة عقلية لا فكاك منها ، فطريقة الإدراك والتفكير ليست واحدة بين الجميع ، وترتيب الألفاظ فى الجملة ، ثم ترتيب الجمل فى النص الأدبى صورة من ترتيب خطوات الإدراك وخطوات التفكير عند الناطق بها . فتبعا لهذا تختلف طريقة ترتيب الألفاظ فى الجملة وطريقة ترتيب الجمل فى النص فى أمة عن أمة . فطريقة ترتيب الألفاظ فى اللغة الانجليزية مثلا وطريقة ترتيب الجمل فى الأسلوب مغايرتان لما فى اللغة العربية ، وهذه المغايرة

تحتمها طبيعة العقلية الانجليزية قبل أن يحتمها اصطلاح اللغة وما اصطلاح اللغة إلا صورة من هذه العقلية غير مستقلة عنها .

ونحن نتكلم اللغة العربية الناشئه فى بطون الجزيرة ونجاد الصحراء وهى صورة لعقلية العرب البادين فى الجاهلية ثم صورة لعقلية العرب المتحضرين أيام الدولة العباسية ، ولكن عقليتنا نحن المصريين فى القرن العشرين لا بد مختلفة كثيرا أو قليلا عن هذه العقلية وتلك ، فلا بد إذا أردنامن هذه اللغة العربية أن تساعفنا فى التعبير عن إحساساتنا وأفكارنا الجديدة أن نغير فى أدائها تغييرا يناسبنا ، وإلا أصبحت غريبة عنا ونحن عنها غرباء .

غير أن هذا التغيير يجب أن تكون له حدود . والحدود التى نرتضيها نحن شبان المدرسة الحديثة هى صحة التصريف اللغوى ، وصحة التركيب النحوى، وصحة ترتيب الألفاظ فى الجملة .... ولا شىء وراء ذلك . ونحن نحس بحاجتنا فى شعرنا خاصة إلى الحرية فى ترتيب الجمل فى النص إلى حد ما — وإلى الحرية المطلقة فى تصوير الأخيلة والأحاسيس الإنسانية ، ولو لم يكن هذا التصوير من المتعارف فى اللغة العربية كلها ، ولا فى نص أدبى واحد من نصوصها .

فحين يقول الشاعر الشاب أحمد مخيمر (من شعراء دار العلوم) قطعة بعنوان « فاكهة النور » .

يا حسن هذا النور يا حسنه   فاكهة تلمع لمع الظنون
تستنسم الروح لها نكهة   كنكهة الشوق وريا الحنين
ناعمة الملمس مثل الشذا   أو ورقات الفل والياسمين
وحلوة اللمح كلمح المنى   إذا سرت فى خاطر اليائسين
يا حسن هذا النور يا حسنه   فاكهة رفافة فى الغصون
يأكلها الحسُّ وتهفو لها   بالنهم الروحى روح الحزين

حين يقول الشاعر الشاب هكذا لا يجوز أن يفغر أناس أفواههم عجبا

واستنكارا ، لأن العرب لم تشبه النور على الغصون بالفاكهة ، ولم تقل : إن لهذه الفاكهة نكهةالشوق، لأن الشوق لا نكهة له ولم تقل : إن هذه الفاكهة ناعمة الملمس لأن النور لاملمس له . . . . إلى آخر هذه التحليلات اللفظية والذهنية .

لا يقل أحد هذا ، وليكن ليقل : آلإحساس بالنور على هذا النحو إحساس صحيح صادق ؟ أيجوز أن يستشعر الشاعر للنور مايستشعرهللفاكهة فى الغصن من روح وريّا ؟ أيجوز أن يتخيله ناعم الملمس ؟ أو لا تُخيّل العين للعقل ملمس ماتراه ؟ ألا يلمح النور للخاطر كلمح المنى والآمال ؟

والجواب على كل هذه الأسئلة بالإيجاب ، والتعبير بألفاظ عربية لاشك فيها صحيحة لغويا ، وتراكيب عربية لاشك فيها صحيحة نحويا ، وترتيب التراكيب فى الأبيات ترتيب عربى لاشك فيه صحيح بيانيا ... وهذا يكفى ...

أما أن العرب قالت هكذا أو لم تقل . فليس الشاعر ملزما بنقل صور الإحساس العربية وإلا فقد شخصيته وخان إحساسه .

***

اختلاف الأساليب : لقد وجد فى العصر القديم من يعيب على المتنبي قوله :

وضاقت الأرض حتى ظل هاربها   إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وحسبوه ضرورة من ضرورات النظم ألجىء إليها ، أو فلتة من فلتات أبى الطيب الكثيرة . لأن « غير شيء » لا يرى . وهذا تحليل ذهنى ولفظى يقف عند ظواهر التعبير ، فلا يستسيغ مافيه من حقيقة وجمال .

ونحن اليوم نعجب بمثل هذا الأسلوب ، فهو فوق إبداعه الفنى فى تصوير الخائف الوجل ، صادق من وجهة الدراسة النفسية . فالهارب الخائف يتوهم أشباحا ويراها . وهى « غير شيء » في الواقع الخارجي، بينما هى « شيء » في خياله ووهمه .

كذلك وجد فى العصر الحديث مع يعيب على شاعر من شعراء الشباب قوله من قصيدة .

غنية أنت بالتعبير قد ذخرت   أطواء نفسك منه زاد أحقاب
وهبتنى منه أشتاتا منوعة   وزدتنى منه فى جود وإسهاب
فى كل جارحة عنوان ملحمة   من الحديث وسر جد جذاب
تقص تاريخها فى فن راوية   منسق النبرذى لحن وإطراب
وإن تاريخها أقصوصة جمعت   تجارب الكون فى أحلام أرباب

✡✡✡

العين . ماذا تقص العين من خبر   مسلسل فى حنايا النفس منساب
والثغر ماذا يبث الثغر من غزل   فى صمته العذب أو فى نطقه السابى
وإن فيه لقبلات قد ارتسمت   من بعد ما نضجت للاثم الصابى!

وقال قوم : كيف تذخر نفس هذه المخلوقة زاد أحقاب من التعبير؟ وكيف تكون الجوارح عنوانا لملاحم من الحديث ؟ وكيف ترتسم القبلات فوق الثغور لأعين اللاثمين ؟ وماهذا الغزل الذى لا يذكر فيه الجمال والهيام ؟

وفى اعتقادى أن الأجيال والتجارب الإنسانية والرواسب الوجدانية فى أعماق النفوس ، تذهب كلها ضياعا ، لو لم يوجد شعراء يقرءون فى نفوس محبوباتهم وهن صامتات أحاديث طويلة وتعبيرات عميقة ؛ ويرون فى كل جارحة من جوارحهن عنوان قصة طويلة من الحب والحنين والأشواق الكامنة والتمنيات السعيدة والآمال السابحة فى المستقبل المرموق بين الحبيبين ويرون فى الشفاه تهيؤا يهتف بالقبل حتى لكأنها مرتسمة على هذه الشفاه تدعو من يقطفها أن يبادر إذ هى ناضجة مهيأة للقطاف !

ومن هذا الوادى كل الأساليب الجديدة التى تقول عنها المدرسة القديمة: إنها تعبيرات أفرنجية لا تعرفها الأخيلة والأساليب العربية .

ولعل من غريب المصادفات أن يكون أكثر من يستخدمون هـذه

التعبيرات والتصورات هم من أبناء دار العلوم الذين لم يحذقوا لغة أجنبية. ولكن طبائعهم الخاصة وإحساسهم القوى بالحياة العصرية فى نفوسهم، وإخلاصهم للصدق فى التعبير عن حقيقة مشاعرهم هو الذى ينطق ألسنتهم بهذه التعبيرات، لأنها أدل على مايجول فى خواطرهم من أحاسيس وتصورات.

على أن الأساليب العربية فى القديم لم تقف عند لون واحد، بل تنوعت تنوعا يناسب تطور الناطقين بها يوم ذاك. وكل ماهنالك أن النهضة الأدبية الحديثة فى مصر لها خصائص ومميزات تستدعى تنوعا أكثر وتعددا أوضح مما حدث فى أيام العصر العباسى الذى يجب أن نعد النهضة فيه نهضة متواضعة بالقياس الى نهضتنا الجديدة.

***

معالم الخلاف الحقيقية بين المدرستين: الى هنا أحسبنى أوضحت معالم الخلاف بين المدرستين فى اللغة والتعبير والأساليب.

وهنا أحب أن أنبه إلى أن بعض الشبان ممن ينتسبون إلى التجديد لم يفهموا رسالة المدرسة الحديثة على حقيقتها، فحسبوا أن كل ماتعنيه هو هذه الأساليب الجديدة فى التعبير، وبالغوا فى هذا الحسبان وفتنهم زخرف التشبيهات وتراقص الصور، وغرابة الأخيلة، وماهى إلا أثواب موشاة على أجساد ميتة أو مصنوعة لا تنبض فيها الحياة. وكان لهؤلاء مدرسة خاصة منذ سنوات تعبر عنها مجلة خاصة، ولكن لحسن حظ النهضة الأدبية أن انزوت هذه المجلة وفطن الأدباء الجديرون بهذا الاسم إلى زيف صناعة التعبيرات المبرقشة. وإنى لأخشى أن يكون هؤلاء الشبان أحوج إلى محاضرة فى شرح المذهب الحديث من أولئك الذين نصمهم بالرجعة والجمود!.

إن الفروق الحقيقية بين المدرستين الآن هى الخاصة بالاتجاهات النفسية والعقلية، وهي التي تسبب اختلاف الأساليب.

وأول ماتختلف عليه المدرستان « طبيعة الشاعر » أهو إنسان كبقية الأناسىّ وهبته الحياة أو وهبه المران القدرة على التعبير الجميل ، أم هو إنسان ممتاز ذو نفس خاصة وهبته الحياة مع القدرة على التعبير الجميل طبيعة خاصة مزودة بالإحساس الصادق بل بالإحساس الخاص بل بالإحساس الممتاز .

أما المدرسة القديمة فلا ترى فى الشاعر سوى مقدرة التصوير البارع عما يحسه غيره ولا يستطيع التعبير عنه. وإذا زادت فتطلبت فيه حسا مرهفا أو ذوقا جميلا . فهى لا تتطلب ولا تعرف كيف تتطلب فيه نفسا خاصة متميزة بطريقة إحساس خاصة ، وهى بطبيعة الحال لا ترتقى إلى أن تكون هذه الخصوصية امتيازا يرفعه فوق الآخرين . فنفسه واحدة من النفوس الكثيرة المكرورة تتميز بأسلوبها وطريقتها لا بلونها وطبيعتها .

أما المدرسة الحديثة فرأيها أن الشاعر إنسان ذو طبيعة خاصة — وتلك أولى مراتب الشاعرية — ثم هو ذو طبيعة ممتازة فى ناحية أو فى عدة نواح بحسب نصيبه من الشاعرية . وقد قصدت الحياة من هذه الطبيعة إلى إبراز طراز عزيز عليها لا يوجد فى كل يوم ، فالشاعر يصور آمالها وآلامها ، ويسجل أحداثها ووقائعها ، ويرسم تطوراتها وحالاتها ، ويلتقط لوحات الكون ولوحات الحوادث بعدستها الخاصة ، فإذا نحن فى عالم من خلقه وإنشائه . عالم جديد غير العوالم التى عهدناها فى أنفسنا وفى سوانا . عالم يضاف إلى عوالم الفنانين الآخرين فيزيد الكون سعة فى إحساسنا ، وغنى فى ضمائرنا . وبذلك يؤدى نصيبه فى تجميل الحياة وتعميقها وتعظيمها .

فالبحر الذى يصفه لنا ذلك الشاعر ليس هو البحر الذى نراه كل يوم والذى رآه غيره من قبل ، ولكنه « بحره » الخاص الذى خلقه هو على غير مثال من بحار الفنانين الآخرين !

والشمس التى تبعث بالضياء إلى كل ماهب ودب على وجه الأرض تطلع

عليه بوجه خاص مذخور له وحده لا يراه الآخرون!

ومن هنا تسقط تلك الخرافة القديمة القائلة: إن المعانى ملقاة على قارعة الطريق يختار من شاء منها مايشاء. فتلك المعانى الملقاة على قارعة الطريق هى المعانى التى لايحفل الشعر بها، فيتخطاها إلى المعانى الخاصة الرفيعة، وهو ينفرد فى حقيقة الإحساس بها، لافى صورة التعبير عنها.

يقرأ القارئون إنتاج الشاعر من المدرسة القديمة وهم يقولون: وىْ كأننا كنا نريد أن نقول هذا ولا نستطيع! فتكون هذه خير مواهبه، وهى أرخص مواهب الفنانين!

ولن يقول أحد مثل هذه القولة وهو يقرأ للعقاد عن البحر:

فى ساحل البحر لنـــا غربة عن عالم الرجس ودار الخراب
يشدو لنا البحر كما قد شدا من قبل أن تؤهل هذه الشعاب

. . . .

فك قيود العمر سلطانه وراجع الشيبُ عليه الشباب
لعل ميلادا لهم عنــده أنساهمو ميلادهم فى التراب
كأنما تعرى نفوس الورى فى الماء عن أجسادها والثياب
فخلق العمر كَمَوْشِيّه ومالك الأرض كخاوى الوطاب

إلى آخر القصيدة .... ذلك أن البحر هنا ليس مياها وأمواجا وزرقة كزرقة السماء مما تراه كل عين وتسمعه كل أذن من هذه المحفوظات .. . إنما هو مغتربٌ لرواده عن عالم الرجس ودار الخراب، وهو يشدو شدوه الخالد الذى رتله من قبل أن تؤهل هذى الشعاب. ولعل السابحين فى غماره إنما يحسون بالقوة والنشوة لأنهم ينسون مولدهم الارضى ويذكرون مولدهم القديم عند هذا البحر يوم ولد البحر الحياة فى مجاهل الزمن الأولى، وكأنما تعرى نفوسهم عنده لا من الثياب وحدها بل من الأجساد أيضا فمن هنا خفتها

ونشوتها وشعورها وهى فى لجه الصخاب بأنها أرواح مطلقة غير مقيدة بالمظاهر والاشكال الدنيوية .

وهكذا تجد فى نفسك من هذا البحر صورة جديدة غير بحار الناس ، ويسبح الشاعر بخيالك إلى مجاهل التاريخ يوم كان البحر يغمر البسيطة ويوم لم تؤهل شعابها المجهولة ، ثم يخلع الحياة على هذا البحر الصخاب فإذا هو يجرد الأنفس من أجسادها ويبث القوة فى أوصالها ويشيع الفتوة فى إحساسها فيفك سلطانه قيود العمر ويرجع الشيب الى الشباب .

وكل هذه معان وأحاسيس ليست ملقاة على قارعة الطريق ولا على « البلاج »! وفضل الشاعر فيها ليس فضل التصوير بالتعبير ، ولكنه فضل الخلق والإيجاد فى الضمير .

ويقول محمد على (الشاعر المجهول وهو أولى من جميع شعراء النهضة الشبان بالالتماع والظهور وهو أحد أبناء دار العلوم) فى ديوانه « تيه الحياة » من قصيدة سماها « إلى الضياء » .

فتحت ذراعى للضياء جميعه ... كما يفتح الصب الذراع الوامق
تقابل فيض من سماء طروبه ... بفيض زخور من حنينى دافق
فلولا قيود الجسم أرزح تحتها ... وأقفاص صدر فى واهى العلائق
لما زجتُ من أضوائه كل هائم ... وخالطت من أنسامه كل خافق
وعانق كلٌّ النور نور بخاطرى ... فشمل فى تهويمة المتعانق
ونفى فناء الفرد فى الله لا ترى ... هنالك فرقا بين خلق وخالق

فالضياء يملأ الكون وتراه كل عين. ولكن «محمد على» وحده هو الذى يتجه إليه هذا الاتجاه ويستقبله هذا الاستقبال ، لأن بنفسه من الحنين وبحسه من الأضواء ما يكافىء هذا الضياء المنتشر فى الأكوان ، وذلك حس جديد بالحياة والطبيعة تسجله هذه الأبيات .

ويقول شوقى عن الربيع .

مرحبا بالربيع فى ريعانه وبأنواره وطيب زمانه
زفت الأرض فى مواكب آذا روشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر يمشى فيه مشى الأمير فى بستانه
عاد حليا براحتيه ووشيا طول أنهاره وعرض جنانه

فترى تعبيرا جميلا وطريقة خاصة فى الأداء ، ولكنك لا تلمح إحساسا خاصا بالربيع على نحو لا يشارك شوقيا فيه مشارك ، فلم يقل شوقى إن الربيع ضاحك ولا أنه يمشى مشى الأمير أى مختالا ، حتى قال البحترى قبله :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد ان يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى اوائل ورد كنّ بالأمس نوّما
يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر ردّ الربيع لباسه عليه كما نشّرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بانفاس الأحبة نعما

مع الفارق الكبير بين ذلك الفيض الزاخر فى قول البحترى ، والطلاقة النابضة التى تخيل لك هذا الربيع بنية حية متوفزة تكاد تنطق بما فيها من فيض القوة والتفتح والبشر ، وبين تلك التشبيهات والاستعارات فى قول شوقى : إن الربيع كالأمير وقد نزل يمشى فى بستانه . ولا ندرى من أين نزل. إذ أن الربيع ينبض من الضمير والأعماق فى نفوس الأحياء من إنسان وطير وحيوان ونبات ، ويتفتح فى الإحساس أشواقا مجهولة وحنينا طائرا وبهجة متطلعة قبل أن يتفتح فى الطبيعة أزهارا وورودا أو كما يقول شوقى حليا ووشيا ! .

إنما أنت واجد هذا الربيع فى قصيدة « العوضى الوكيل » أحد شعراء الشباب من دار العلوم .

قد ابتسم الجمال بكل روض وأسرعت الطيور إلى الهتاف
صحت فى الروح أغصنه نضارا كما تستيقظ الذكر الغوافى
حياة فى المتالع والروابى وأنس يطبيك بلا اعتساف
أكاد أريق نشوته بصدرى وأعصر منه أكواب السلاف
أتلك الزهرة الحسناء لحن تردد بين يقظان وغاف
أذاك الجدول النعسان روض مطالعه تفتح عن قواف
وتلك النفس أم ملأ عديد تواكب فى الأضالع والشغاف
تكاثرت النفوس بكل نفس نوازعهن صرن إلى اختلاف
نهضن إلى الحياة وهن شتى بنظرة وامق وبشوق واف

... إلى آخر القصيدة ، فتلمح فورة الربيع فى الضمائر والنفوس التى تواكبت فى الأضالع والشغاف وكأن كل نفس لشدة ماتفتحت أحاسيسها وتطلعت إلى الجمال النابض فى كل مجالى الطبيعة نفوس كثيرة لكل منها أشواق مختلفة وذلك ربيع العوضى الوكيل لا ربيع الجميع الملقى على قارعة الطريق !

ونخلص من هذا كله إلى أن نظرة النقد الحديث تتجه أولا إلى السؤال الآتى : هل هذا الشاعر ذو طبيعة فنية خاصة ؟ ، ثم هل هذه الطبيعة الخاصة طبيعة ممتازة ، وعلى قدر توافر هاتين الصفتين يكون الحكم على شاعريته، أما التعبير الجميل والأسلوب الرائع والجرس الموسيقى ... إلى آخر أوصاف التعبير الجيد فتأتى فى المرحلة الثانية ، ولا تنهض وحدها بخلق الشاعر بله الشاعر الكبير .

* * *

وتختلف المدرستان بعد هذا على « وظيفة الشاعر » فالمدرسة القديمة تخلط بين وظيفته ووظيفة المؤرخ تارة ، وبين وظيفته ووظيفة الداعى الاجتماعى أو الأخلاقى أو الوطنى تارة فتطالب منه حينئذ أن يقوم على تسجيل أحداث

عصره وواقعات زمانه، والخوض فيما يخوض فيه عامة الناس والاشتغال بما يشتغلون به من شئون . أو تطلب منه أن يكون الهاتف لشعبه بالدعوات الاجتماعية والخلقية أو النعرات الوطنية والقومية .

فإن فعل هذا فهو شاعر، كيفما كان إحساسه بما يهتف به، وكيفما كانت طريقته فى أدائه، مادام الأسلوب رائعا والألفاظ منتقاةوالموسيقى واضحةفى مقطوعاته . ومن هنا كان شوقى وكان حافظ عند هذه المدرسة هما شاعرا العصر الحديث !

وإن لم يفعل فما هو بشاعر وما أدى وظيفته للفن أو للأمة لأن جيله لم « ينتفع » به . كأن « المنفعة » القريبة العاجلة المباشرةهىأسمى آفاقالفنون !

وهذه النظرة هى بقية من النظرة إلى شعراء القبيلة الذين كانوا يعبرون عن خواطرها وينطقون بلسانهاويذودون عن حياضها، ويبلورون أحاسيسها الساذجة المشتركة بين الجميع .

أما المدرسة الحديثة فتحسب حسابا لتطور الزمن، وانتهاء عهد القبلة، ووضوح السمات بين الأفراد . وتطلب الخصوصيات فى الأنفس والمشاعر والعقول . فتعفى الشاعر من هذه القيود، وترتفع به عن مستوى الحوادث اليومية مالم ير فيها رأيا خاصا ويشعر بها شعورا ممتازا ، وهى تطلقه حرا يشايع إحساسه الخاص ويعبر عن وجداناته الذاتية ؛ وسواء عليه أن يحس بما يخالج الجماهير ويعيش فى دنياهم، أو يبقى فى صومعة يغرد لنفسه ويردد مشاعرها الذاتية، كأنما يحيا وحده فى هذا الكون الرحيب .

ونفس الفنان الخاصة المميزة عن غيرها من النفوس الشائعة وشخصيته المتفردة التى تسم كل أعماله بميسمها هى أعز مواهبالفنان فى تقدير هذهالمدرسة

وما دام الشاعر صاحب شخصية لاتخفى بين الشخصيات الكثيرة ولاتندغم فى غمار الجماهير أو غمار الشعراء الآخرين ، ومادام يسجل لنا

خواطر هذه الشخصية فى أى واد من وديان الإحساس ، وبأية طريقة من الطرق الذاتية ، فهو شاعر أدى وظيفته كاملة ، سواء هتف بآمال قومه وآلامهم أم غنى للكواكب والنجوم بين الزعازع والأعاصير !

ومن هنا كان شوقى وكان حافظ فى عرف هذه المدرسة شاعرى جيلهما وحده ، وكانا حلقة لها قيمتها فى سلسلة النهضة الأدبية ، ولكنها حلقة فات أوانها ، ولم تعد تسد مسد الحلقة الحاضرة ، ثم هى لا تقاس بحلقات النهضة القديمة كما فى العصر العباسى مثلا فلقد كانت الطبائع الفنية هناك متميزة تميزا كافيا لبقائها حتى هذه اللحظة وحتى الغد البعيد حية مرموقة. فأبو تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى وأمثالهم أصحاب طبائع خاصة ممتازة تكفل لهم الدوام ، وليس كذلك شوقى ولا حافظ ولا البارودى ولا اسماعيل صبرى ولا البكرى ولا ولى الدين يكن من شعراء الجيل الماضى فى النهضة الحديثة .

ولقد فاتنى أن أذكر لكم فى أول المحاضرة أن المدرسة الحديثة معنية بالنماذج البارزة الممتازة فى كل عصر وجيل فى الشرق العربى والغرب الأوربى ، وأنها تحسب من الجديد كل ذى طابع خاص ممتاز فى القديم والحديث على السواء فشعراء النهضة العباسية الذين ذكرتهم من أعيان المدرسة الحديثة لا بل إن شاعرا مطبوعا كامرىء القيس فى الجاهلية لا تمنعه هذه المدرسة من غشيان ناديها ، والجلوس إلى مائدة فى الردهة منها ، بينما شعراء معاصرون لنا أو رحلوا إلى العالم الآخر منذ قريب تحرمهم هذا الشرف ، لأنهم مقلدون أو لأنهم نكرات شائعة ليس لها طابع مختوم ، أو لأن خصوصيتهم لم تبلغ درجة الامتياز .

يقول شوقى بيته المشهور :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فلا يزيد على أن يلقى موعظة جاءته بالسماع والمعرفة ، ولم تنبع من طبعه

الخاص أو مزاجه المعروف ، ولست تقول حين تسمعها وأنت تجهل قائلها : « هذا شوقى . وتلك حكمته . فهى بمزاجه أليق وبطبيعته أشبه » ذلك أن مزاج شوقى وطبيعته المعروفين لا يوحيان بهذا القول ولا ينضحان نضحا طبيعيا بهذا الاتجاه .

ويقول المتنبي :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

فإذا هى حكمة المتنبي خاصة ، تلقاها من طبعه المغامر وقلبه الطموح ولم يتلقفها من أفواه الآخرين ، ولم يتعلمها بالدرس والملاحظة والتلقين .

وهذا هو الفرق بين شعراء الشخصية وشعراء الجماهير

٭٭٭

والاختلاف على طبيعة الشاعر وعلى وظيفته يؤديان إلى الاختلاف على « اتجاه الشاعر » فيكثر فى شعر المدرسة الحديثة لونان من ألوان الاتجاه الشعرى هما شعر الطبيعة وشعر الحالات النفسية ، فلنفرد لكل منهما كلمة قصيرة هنا وإن كان كل منهما فى حاجة إلى محاضرة خاصة .

شعر الطبيعة : نفس الفنان هى أكثر النفوس خفقا لمجالى الطبيعة واتصالا بأعماقها ومظاهرها ، ولكن الفنانين يختلفون فى اتصالهم بهذه الساحرة التى لعبت بلبهم جميعا ، وتبدت لهم مرة عرائس وجنيات فى البحار ، ومرة آلهة وشياطين فى الأرض والسماء ، ومرة أنغاما وأصداء فى زفزفة الرياح وصدحات الأطيار ، ومرة وسوسة وهمسا فى حفيف الغصون والأوراق ، وخرير الجداول والغدران ... إلى آخر مفاتن الطبيعة ومجاليها ، وتقلباتها وأعاصيرها. هم يختلفون فى صلتهم بهذه الساحرة التى مايزال سحرها يجوز على الجميع ويهجس فى الأخلاد والضمائر حتى بعد أن تكشف عن وجهها النقاب وبعد أن

عرف الجميع أن ليس هناك جنيات فى البحار ، ولا آلهة فى الرعد والبرق ، ولا أرواح فى الزفزفة والخرير .

هم يختلفون فى صلتهم بها ، فبعضهم يرى نفسه نفحة من نفحاتها ونسمة من نسماتها وذرة من كيانها فيذوب فيها ذوبان القطرة فى الغدير والنفحة فى العبير ، بينما البعض الآخر يرى نفسه ندا لهذه الطبيعة كلها وكفئا لزوابعها وأعاصيرها وبرقها ورعدها وبرها وبحرها وزهرها وطيرها ، تقارعه ويقارعها فيتفاهمان أو يتخاصمان وهما ندان متكافئان .

وبعضهم يرى فيها الحبيبة الودود والصديقة الحميمة ويقبل عليها إقبال العاشق المحب المتفتح الحس والوجدان لاستجلاء مظاهرها ، واستبطان خوافيها ، بينما البعض الآخر يقف منها وقفة المتوجس المذعور ، تفزعه غضباتها وتريبه سكناتها كأنه منها مع ساحر مرهوب جبار !

وفيهم من يتصل بهذه الطبيعة اتصال اللحم والدم ، فهو دفعة من دفعاتها وقوة من قواتها وتعبير من تعبيراتها ، لا يرى لنفسه كيانا مستقلا عنها . وفيهم من يقف منها موقف الدارس المتأمل المستجلى لجمالها وقبحها ، المحلل لخيرها وشرها .

ويطول بنا القول حين نعدد مظاهر الأحساس بالطبيعة بين الفنانين . ولكننا نكتفى بأن نسأل: هنا ما نصيب الشعر العربى القديم — حتى الممتاز منه — من الالتفات إلى مجالى الطبيعة ؟

والجواب على هذا ليس فى صف هذا الشعر العربى ، فنحن حين نستثنى — ابن الرومى — وكان بدعا فى الشعر العربى كله فى هذه الخلة ، لا نجد شاعراً آخر وهب الطبيعة شطرا كبيراً من ديوانه أو أحس بها إحساسا عميقا يتعدى الظواهر والأشكال ويتعمق إلى ماوراء الأصوات والروائح والألوان . الى قلب الطبيعة النابض وكيانها الحى وخفقاتها الأصيلة . فديوان المتنبى كله تكاد لا تجد

فيه إلا وصف شعب بوان ، وديوان البحترى كله تكاد لاتجد فيه إلا وصف النيروز — والبحترى هو الشاعر لجودة الوصف كما يقول نقاد العرب — ثم تعثر على فلتات فى شعر الطبيعة لابن خفاجة الأندلسى وابن حمديس ولكنه ليس سليما من التزويق والتزييف فى كل حال . وبعد هذا لاتقع العين إلا على الزوارق ذات الحولة العنبرية وإلا على أعلام الياقوت المنشورة على رماح الزبرجد . . . . إلى آخر هذا العبث بالتشبيهات والالوان

فإذا نحن تطلعنا إلى شعر النهضة الحديثة وجدنا الطبائع المختلفة والانماط المتعددة فى شعر الطبيعة. وذلك دليل الغنى والحيوية فى طبائع شعراء الجيل . ولن يتسع الوقت لعرض النماذج الكثيرة ، فأنا أكتفى بقطعة العقاد فى وصف البحر وقطعة العوضى الوكيل التى سمعتموها فى وصف الربيع ، وبقطعة أحمد مخيمر التى سمعتموها فى وصف النور ، وبقطعة محمد على التى سمعتموها عن الضياء.

شعر الحالات النفسية : أما شعر الحالات النفسية فهو قلة قليلة فى الشعر العربى كله — حتى عند ذوى الطبائع الممتازة — ولا تجده هناك إلا فى « شكوى الزمان » وإلا فى بعض مقطوعات الرثاء . وهو على قلته يكاد يسير على نسق واحد ويصب فى قوالب متشابهة محفوظة .

وإذا استثنينا رثاء ابن الرومى لأولاده — وهو رثاء صادق فريد — ورثاء المتنبى لجدته وفيه خصائص المتنبى القوية ، وقصيدة المعرى الخالدة فى الرثاء الإنسانى كله ، وقليلا يقرب من هذا الوادى ؛ واستثنينا كذلك بعض أبيات متناثرة للمتنبى فى وصف بعض حالاته النفسية فى نكباته كقوله :

وحيد من الخلان فى كل بلدة   إذا أعوز المطلوب قل المساعد

وقوله :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وبعض أبيات لأبى فراس الحمدانى فى اسره ،وحفنة من الأبيات لسواه من شعراء العرب . لو استثنينا هذه الأبيات المتناثرة هنا وهناك التى نستطيع أن نسميها شعرا نفسيا عاليا ، فإننا لانجد هذا اللون من الشعر فى هذا الانتاج الضخم على مر الأجيال . وهو فى مجموعه لايبلغ مقدار نظيره فى ديوان شاعر واحد من شعراء الجيل الحديث .

والحكمة فى هذا واضحة . فقد كان الشعر العربى شعر القبيلة أولا ، فلم تكن للشاعر هموم وأشواق خاصة يعنى بالتعبير عنها ؛ فلما تخلص من قيد القبيلة وبدأ يتبلور خلقة مستقلة قصد بالشعر أبواب الخلفاء والأمراء يمدحهم أو يهجوهم أو يرثيهم ويعزيهم . ولم يجد فى هذا الغمار فرصة يلتفت فيها إلى نفسه ، وينغمس فى ذاته ويعبر عن شعوره إلا قليلا

أما الشعراء الذين خلصوا لأنفسهم فقد كثر فى شعرهم الالتفات إليها كالشريف الرضى والمعرى ، وكشعراء الغزل أمثال عمر بن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف ، ولكن هؤلاء لم يجيدوا إلا فى القليل ، ولم يبلغوا أن يخصصوا قصائد كاملة لتصوير نفوسهم أو النفس الإنسانية على وجه العموم ولقد ظل الشعر العربى شعراً غنائيا لم يسلك سبيل القصة ولا الرواية ، فلم ينفسح له الأفق لتصوير النفوس الإنسانية وهى تلعب دورها فى الحياة كما انفسح للغربيين .

أما الشعر الحديث ، فهو وإن لم يتناول القصة أو الرواية إلا قليلا ، إلا أنه عنى بوصف الحالات النفسية الكثيرة المتعددة الأنماط لقائليه . وكان هذا أمرا طبيعيا . ذلك أن الشعر تخلص من الشيوع والانغمار فى القبيلة ، ثم تخلص من الفناء فى أصحاب السلطان ، ثم تخلص من التقليد والقوالب المحفوظة ، فخُلِّى بين الشاعر ونفسه ، يناجيها وتناجيه ، ويرى الكون كله من خلالها ، وأصبح الشعر « صورة الكون فى نفس فنان ، وانعكاس الحياة فى حس انسان » .

وساعدت بحوث التحليل النفسى وتشريح الوجدانات والعواطف فى القصص والروايات على الانتباه لما يجرى فى النفس من أحاسيس.

فكل دعوة اليوم للشعراء أن يهتفوا بالدعوات الاجتماعية والنعرات القومية، أو ينغمروا فى أحداث العصر ووافعات الأيام، هى دعوة للنكسة إلى شعراء القبيلة. وكل فناء اليوم فى أصحاب السلطان وتوجه إليهم بالشعر إنما هو نكسة كذلك إلى شعراء المدح وإذلال لكبرياء الفن. ودليل على زيف فى طبيعة هؤلاء الذين يلبسون مسوح الشعراء!

والأمثلة لشعر الحالات النفسية هى كل دواوين شعراء النهضة الحديثة، وما أنا بمستطيع نقلها إليكم وتحليلها، ولكنى أختار قطعة واحدة لشاب صغير لاديوان له:

يقول «محمد قطب» فى قصيدة سماها «غريب»

غريب أنا فى ذلك الكون كله ... على سعة فى الكون توحى بإيناس
غريب بنفسى عن نفوس كثيرة ... غريب بفكرى عن دنى ذلك الناس
وأحسب أنى تائه فى غمـــارهم ... كما ضل ومض فى غمار الدجى القاسى
وما نلتقى فى خفقة أو وشيجة ... ولا فكرة عليا ولا طيف وسواس
وما بيننا من رابط غير أننا ... نجوب معا دنيا من الحلك الكاسى
ترى أيّنا أصفى ضميرا وعنصرا ... وأكثر صدقا أو سلامة إحساس
لأحسب فى دنياهمو كل ضلة ... وأحسبها دنيا شرور وأرجاس

***

لقد كنت قبل اليوم هيمان فى الذرا ... أحلق نشوانا إلى كل مرتاد
يفيض بنفسى الفن بشرا وغبطة ... ويهمس فى أذنىّ كالطائر الشادى
ويخلق فى نفسى مُنًى عبقرية ... ويلهمنى الإحساس كالكوكب الهادى
ويمنحنى صفو الحياة وذخرها ... وأجمل مايهفو له الناهل الصادى

فأشبع حبى للحيــاة نقية ويسمو إلى خلد السماء فؤادى
وأرقب هذا الناس فى دينياتهم كما أرقب الأنعام تنساق فى الوادى
فيأخذنى رفق بهم فى ضلالهم يهيمون فى دنيا الظلام بلا حادى

***

ولكننى أقفرت يوما من المنى وجئت إلى الظلماء غـــير مزود
فلفتنى الظلماء من كل جانب وبثت لى الأشواك فى كل مقصد
وما أرتوى من مورد . أى مورد وما ألتقى إلا بدجوان أجرد
وطال هيامى فى الظلام بلا هدى فأجهدت من سير ممل مشرد
وأخلد قلبى للسكون والكرى بليدا من الإحساس أى تبلد
فلما أفقت اليوم من ذلك الكرى تلمست حولى الكون علّى أهتدى
فألفيتنى فيــــه غريبا مشردا أهوم فى واد من التيه سرمد

وصاحب هذه القطعة شاب فى الواحدة والعشرين ، فلم تكن لديه فسحة من العمر ليقطع فيها هذه المراحل النفسية التى يصورها فى قصيدته ، لولا أن النهضة الحديثة تنضج شعراءها قبل الأوان .

وكان نصيب شعر الغزل وفيرا من شعر الحالات النفسية ، لأن الحب كان ومازال من أعمق العواطف البشرية ، التى تهز النفس هزاوترجها رجا ، وتخلق منها نفوسا كثيرة كل نفس للحظة التى هى فيها وللحالة التى تصادفها .

وبعد أن كان هذا اللون من الشعر يصاغ فى قوالب محفوظة أو كالمحفوظة فى الشعر العربى ، أصبح أنماطا شتى فى دواوين شعراء النهضة الحديثة ، بل أنماطا شتى فى كل ديوان من هذه الدواوين؛ولم يعد الغزل تعبيرا ساذجا عن الشوق واللهفة أو الألم والتوجع ، أو المتعة والارتواء . ولكنه عاد تعبيرا عن مطامح الروح وعن سبحات الشعور ، واتصل الحب فى كثير من النفوس بمذاهب فلسفية وغايات أبعد من الرى والظمأ ، فإذا له عِلاقة بالأغراض

الكبرى للكون والحياة ، وإذا هو حافز من الحوافز التى توجه الدنيا إلى آفاق جديدة تتجاوز فيها الأفراد إلى الآباد .

وقبل كل شىء تعددت القوالب وتنوعت الأنماط ، وذهب كل شاعر مذهبا يوافق طبيعته ويتغذى بثقافته .

ويصعب على هنا أن أوقع على الأوتار المختلفة التى وقع عليها شعراء النهضة الحديثة فى الغزل ، بل يصعب على أن أوقع على أوتار شاعر واحد جميع النغمات التى وقعها . ولقد استغرقت نحو أربعين صفحة من صفحات الرسالة منذ ثلاثة أعوام لأضرب أمثالا متنوعة من « غزل العقاد » لا يغنى فيها مثل عن مثل ، بينما أنا مستطيع أن أستغنى بمثل واحد لأشعر شعراء الغزل العرب عن بقية ديوانه ، لأن البقية صورة لهذا المثل .

ولكننى سأستعرض معكم بعض مقطوعات الغزل الحديث على سبيل المثال لا على سبيل الاستقراء . يقول العقاد فى ليلة موعد سماها « عروس الليالى » فى ديوانه « هدية الكروان » .

عروس الليالى تهبط اليوم من عل   وتدنو على طول النوى والتدلل
سرت بين شرق من ضياء ومغرب   وبين جنوب من ضياء وشمأل
كأنى أراها من دهور بعيدة   لطول اشتياقى وجهها وتأملى
فياليلة القدر المؤمل أقبلى   تعالى أقبل منك كل مقبّـل
خذى لك جثمانا يضمك عاشق   قليل لديه صورة المتخيل
وتيهى بوجه من صباحك مشرق   وميلى بفرع من مسائك مسبل
سأبديك شعرا يملأ السمع شدوه   إذا ضنت الدنيا بجسم ممثل

ويقول محمد على (شاعرنا المجهول) فى قطعة سماها « بدء الحب » فى ديوانه « تيه الحياة » .

خفوق هنا فى الجو والماء والسنا   وفى صفحة الدنيا وفى الزهر والعشب

كأنى أرى الدنيا لأول مرة ... لكثرة مايبدى الغرام وما يصبى
لقد بان لى منها خفايا عجيبة ... وكم لمعت حينا فلم يدرها قلبى
وقد كشفت عنه عصا ساحرية ... فبانت مجالى النور من خلل الحجب
كأن جميع الكون حين نظرتها ... فؤاد من الأهواء يخفق فى قلبى
وفى القلب منى هدأة بعد ثورة ... كما يهدأ الصوفى فى مشهد الغيب
نعم ها هنا قلب تفتح بابه ... لأول مايذكيه من قبس الحب

ويقول أبو القاسم الشابى (ذلك الشعاع الذى تراقص فترة من الزمن ثم خبا إلى الأبد) فى قصيدة سماها « صلوات فى هيكل الحب » .

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام ... كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال ... وشباب منعم أملود
يالها من طهارة تبعث التقديس ... فى مهجة الشقى العنيد
يالها رقة تكاد يرف الور ... د منها فى الصخرة الجلمود

٭ ٭ ٭

أنت .. ماأنت ؟ أنت رسم جميل ... عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق ... وجمال مقدس معبود
أنت . ماأنت أنت فجر من السحر ... تجلى لقلبى المعمود
فأراه الحياة فى مونق الحسن ... وجلى له خفايا الخلود
أنت روح الربيع تختال فى الدنيا ... فتهتز رائعات الورود
وتهب الحياة سكرى من العطر ... ويشدو الوجود بالتغريد
كلما أبصرتك عيناى تمشين ... بخطو موقع كالنشيد
خفق القلب للحياة ورف الزهر ... فى حقل عمرى المجرود
وانتشت روحى الكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبل الغريد

أنت تحيين فى فؤادى ما قد مات فى أمسى السعيد الفقيد
وتشيدين فى خرائب روحى ما تلاشى فى عهدى المجدود
من طموح إلى الجمال إلى الفن إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبثين رقة الشوق والأحلام والشجو والهوى فى نشيدى
بعد أن عانقت كآبة أيامى فؤادى وألجمت تغريدى
أنت أنشودة الأناشيد غنا ك إلاه الغناء رب القصيد

٭ ٭ ٭

فيك شب الشباب وشحه السحر وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغانى الوجود
وتهادت فى أفق روحك أوزا ن الأغانى ورقة التغريد
فتمايلت فى الحياة كلحن عبقرى الخيال حلو النشيد
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجع ناى بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان فى كل وقفة وقعود
كل شىء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

إلى آخر هذه القصيدة التى أتركها مرغما لضيق الوقت وطول الحديث . .

هذه مقتطفات سريعة من لون واحد من ألوان الغزل ، هو الخفقة الأولى للحب. أما حين يخطو خطواته ويتعمق فى النفس فيثير كوامنها ويصلها بفلسفات وتأملات شتى ؛ وحين يتعكر صفوه فيثير الحرق والآلام ويفجر الصرخات والثورات ؛ وحين تخبو شعلته وتسكن فورته فيغشى النفس بدخان الأسى وعقابيل الذكرى . . . وحين وحين إلى آخر حالات الحب وأشكاله ، فعليكم أن تقرءوا دواوين الشعر الجديدة لتطلعوا منها على الكثير .

٭٭٭

هذا وقد اخترت أن أحدثكم عن بعض سمات الشعر الحديث لا عن مذاهبه لأن هذه السمات تتحقق فى الشاعر مهما يكن مذهبه فى الشعر : غنائيا أم رمزيا أم واقعيا أم قصصيا أم تمثيليا .

ولم أستطع أن أحدثكم مع ذلك عن كل سمات الشعر الحديث وأخصها تأثره بالفلسفات والمذاهب العلمية الكبرى، وتأثيره فيها . وسمة الصدق والقصد فى كل فنونه . وكذلك لم أحدثكم عن مذاهب الشعر التى أشرت إليها . لأن الزمن المخصص لهذه المحاضرة – وقد تجاوزته – لا يتسع للحديث فى هذا كله . ولعلنى مستطيع فى محاضرتين اخريين أن أحدثكم عما فاتنى أن أحدثكم الليلة فيه . إن لم أكن أمللتكم بهذه المحاضرة الطويلة !

حلوان

سيد قطب

فتنة خلق القرآن

« نشرنا النصف الأول من محاضرة الأستاذ صفوت في العدد الماضي من الصحيفة وعرفنا أن المأمون كتب رسالة لاسحاق في شأن العلماء الذين لا يقولون بخلق القرآن وأنه سألهم ما طلب الخليفة، وكتب مقالتهم وأرسلها إليه »

للأستاذ احمد زكى صفوت

وقد ورد كتاب المأمون في أمرهم ونسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك — جوابُ كتابه كان إليك - فيما ذهب إليه متصنِّعة أهل القبلة وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأَمَرَك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم، وإحلالهم محالَّهم، تَذْكُرُ إحضارَك جعفر بن عيسى وعبدَ الرحمن بن إسحق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان يُنْسَب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفُتيا بمدينة السلام ، وقراءتَك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم وإطباقهم على نفي التشبيه ، واختلافهم في القرآن ، وأمْرَك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى في السر والعلانية ، وتقدُّمَك إلى السِّنْدِيّ وعبّاس مولى أمير المؤمنين بما تقدّمْت به فيهم إلى القاضيين (١) بمثل ماشمّل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضرُ مجالسهما من الشهود ، وَبثِّ الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك ، لتحمِلهم

---

(١) يعني جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحق .

وتمتحنهم على ماحدّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ من حضر ومقالاتِهم ، وفَهِمَ أمير المؤمنين ما اقتصصت .

وأمير المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهله ، ويسأله أن يصلى على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ويرغب إلى الله فى التوفيق لطاعته وحسن المعونة على صالح نيته برحمته ، وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء من سألتَ عن القرآن ، ومارجع إليك فيه كلُّ امرىء منهم وما شرحتَ من مقالتهم .

فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادّعى من تركه الكلامَ فى ذلك واستعهادِه أميرَ المؤمنين ، فقد كذب بشرٌ فى ذلك وكَفَر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيره عهدٌ ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمةَ الإخلاص ، والقولِ بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانْصُصه عن قوله فى القرآن ، واستتِبْه منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ؛ إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراحَ ، والشركَ المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأشهر أمره وأمسك عنه ، وإن أصرّ على شركه ، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وكذلك إبراهيم بن المهدى فامتحنه بمثل ماتمتحن به بشرا ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغَتْ أميرَ المؤمنين عنه بوالغ ، فإن قال إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مقاتل فقل له : ألستَ القائل لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم ! والمكلِّمَ له بمثل ما كلّمته به ، بما لم يذهب عنه ذكرُه !

وأما الذَّيَّال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة [١] أمير المؤمنين أبى العباس ما يَشْغَله، وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه، وسالكا مناهجهم، ومحتذيا سبيلهم لَمَا خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوَّام وقوله إنه لا يحسن الجواب فى القرآن، فأعلمه أنه صبى فى عقله لا فى سِنّه، جاهل، وأنه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدلَّ على جهله وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم، فأعلمه أنه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال فى أقلَّ من سنه، وما شَجَر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبتَه، فليس بمستنكَر أن يبيع إيمانه؛ طمعا فيهما، وإيثارا لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذى حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره؟

وأما الزيادىّ [٢]، فأعلمه أنه كان منتحلا أولا أوَّلَ دعىٍّ كان فى الإسلام، خولف فيه حكم رسول الله ﷺ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد، أو يكون مولى لأحد من الناس — وذكر أنه إنما نُسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبى نصر التَّمَّار، فإن أمير المؤمنين شبَّه خساسة عقله بخساسة متجره.

(١) هى مدينة الهاشمية، بناها السفاح بالكوفة.

(٢) هو أبو حسان الزيادى، والدعى: المتهم فى نسبه المنسوب إلى غير أبيه. والمراد زياد ابن أبيه

وأما الفضل بن الفَرْخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذَ الودائِع التى أودَعها إياه عبد الرحمن بن إسحق وغيره ؛ تربُّصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحق :لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه ، وهو معتقد للشرك ، منسلخ من التوحيد !

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيلُ بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتهم إلاّ لإربائهم وما نزل به كتابُ الله فى أمثالهم لاستحلّ ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا ، وصاروا للنصارى مِثْلا ؟

وأما أحمد بن شجاع ، فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام ، وأنه ممن الدينارُ والدرهمُ دينُه .

وأما سعدوية الواسطىّ ، فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين له والحرص على طلب الرياسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة ، فيقول بالتقرب بها : متى يمتحن فيجالس للحديث .

وأما المعروف بسَجّادة وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقة القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى وحَكه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه علىّ بن يحيى وغيره — ما أذهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد ابن الحسن يقولانه إن كان شاهَدَهما وجالسَهما.

وأما القواريرىُّ ، ففيما تكشّف من أحواله وقبوله الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير

المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائلَه ، فتقدَّم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه وترك الثقة به والاستنامة اليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف .

وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه ، لم ينتحل النحلة التى حكيت عنه ، وإنه بعدُ صبى يحتاج إلى تعلم .

وقد كان أمير المؤمنين وجّه إليك المعروف بأبى مُسْهِر بعدأن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن ، فجمجم [1] عنها ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميما ، فانصُصْه عن إقراره ، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه — ممن سميتَ لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا — ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وإبرهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين موثوقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، وتسلمهم إلى من يؤمَن بتسليمهم إليه ؛ لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا ، حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله !

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بُندارية [2] ، ولم يُنْظِر به اجتماع الكتب الخرائطية ، معجِّلا به ، تقربا إلى الله عز وجلّ بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراكَ ما أمَّل من جزيل ثواب الله عليه .

---

(١) الجمجمة : أن لا يبين كلامه كالتجمجم (٢) : الخريطه وعاء من أدم وغيره يشد على ما فيه ، وبندارية : نسبه إلى البندار وهو التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء — فهو كثير المال — والظاهر أن الخريطة البندارية كانت تمتاز عن سائر الخرائط بمتانة صنعها وإحكامها واتساعها لمقدار من النقود كبير ، وانظره : أخره .

فأنفِـذْ لما أتاك من أمير المؤمنين ، وعجِّـل إجابة أميرالمؤمنين بما يكون منك فى خريطة بنْـدارِية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرِّف أمير المؤمنين مايعملونه إن شاء الله[1] » .

وكتب سنة ٢١٨ هـ

فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق إلاأربعة نفر ، وهم أحمدبن‌حنبل وسجَّادة والقواريرى‌ومحمد بن نوح ، فأمر بهم إسحق ابن ابراهيم فشدوا فى الحديد فلما كان من الغد دعابهم‌جميعا يساقون‌فى‌الحديد، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم ، فلما كان من بعد الغـد عاودهم أيضا فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى إلى‌أن‌القرآن‌مخلوق ، فأمربإطلاق قيده وخلىّ سبيله ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا فشدا جميعا فى الحديد ، ووجّها إلى طَرَسوس[2] ، وكان المأمون قد خرج إليها غازيا فأدركته منيته بها ، ومات ابن نوح فى طريقه إليها .

واتفق أن مات المأمون قبل وصول ابن حنبل إليها (سنة ٢١٨) وعهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة ، وأوصاه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، واستمر الإمام أحمد محبوسا إلى أن امتحنه المعتصم ، فأحضره وعقد له مجلسا للمناظرة ، وفيه عبد الرحمن بن اسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل‌معهم‌فى‌جدال إلى‌اليوم‌الرابع ، فأمرالمعتصم بضربه بالسياط ، ولم يحُـلْ عن رأيه إلى أن أغمى عليه ، ونخسه عجَـيْف[3] بن عَنـبَسة بالسيف ، ورمى عليه باريَّـة[4] وديس عليه ، ثم حمل إلى منزله‌بعد أن ضرب ثمانية وثلاثين سوطا ، وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا .

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩

(٢) مدينة ببلاد الأناضول بينها وبين أذنة (أطنة) ستة فراسخ

(٣) هو أحد قواد المعتصم

(٤) البارية : الحصير المنسوج

ذكروا أنه لما نوظر فى الأيام الثلاثة كان المعتصم يخلو به ويقول له : ويحك ياأحمد ! أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون « يعنى الواثق » فأجبنى ، فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ، ولأطأن عتبتك ، ولأركبن إليك بجندى ، فيقول : ياأمير المؤمنين، أعطونى شيئا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ ، فإذا طال به المجلس ضجر وقام وردّ أحمد إلى الموضع الذى كان فيه ، وتتردد إليه رسل المعتصم يقولون : ياأحمد،أمير المؤمنين يقول لك : ماتقولون فى القرآن ؟ فيرد عليهم كما ردّ أولا ، فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده وزيره محمد بن الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى داود ، فقال المعتصم كلموه وناظروه ، فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا : يا أمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا ، فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد ، فخرّ مغشيا عليه ، فتمعّرت وجوه قواد خراسان — وكان عم أحمد فيهم — فخاف الخليفة منهم على نفسه ، فدعا بماء ورش على وجهه ، فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه وقال : ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه . فقال المعتصم : ويحكم ! أما ترون مايتهجم به علىّ هذا ؟ وقرابتى من رسول الله ﷺ لارفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق . ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول ، فردّ أحمد كالأول ، فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس ، فعند ذلك قال : عليك لعنة الله ! لقد كنت طمعت فيك قبل هذا ، خذوه ، اخلعوه ، اسحبوه ، فأخذ وسحب ثم خلع ، ثم قال المعتصم : السياط ، قال الإمام أحمد : وكان عندى شعرات من شعر النبى ﷺ قد صررتها فى كم قميصى ، فجاء بعض القوم إلى قميصى ليحرقه ، فقال المعتصم : لاتحرقوه وانزعوه عنه ـ وإنما درىء عن القميص الحرق ببركة شعر النبى ﷺ ـ وشدوا يديه فتخلعتا ـ ولم يزل أحمد يتوجع منهما حتى مات ـ ثم قال

المعتصم للجلاديين : تقدموا ، ونظر إلى السياط فقال : إيتوا بغيرها ، ثم قال لأحدهم : أذِمّه[١] وأوجع ، قطع الله يدك ! فتقدم وضرب سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر : أذمّه وشُدّ ، قطع الله يدك ! فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى، ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ، ثم قام المعتصم وجاءه وهم محدقون به ، وقال : يا أحمد، تقتل نفسك ! أجبنى حتى أطلق غلك بيدى ، وجعل بعضهم يقول له : يا أحمد ، إمامك على رأسك قائم فأجبه ، وعجيف ينخسه بالسيف ويقول : أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وبعضهم يقول : يا أمير المؤمنين،اجعل دمه فى عنقى ، فرجع المعتصم إلى الكرسى ثم قال للجلاّد : أذِمّه قطع الله يدك ! ثم جاء المعتصم إليه ثانيا وقال : يأحمد ، أجبنى ، فقال كالأول ، فرجع المعتصم وجلس على الكرسى ، ثم قال للجلاد: شدّ عليه ، قطع الله يدك ، قال أحمد : فذهب عقلى فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى ، كل ذلك وهو صائم لم يفطر ، وكان ذلك سنة ٢١٩ هـ على ماذكره المسعودى . وروى ابن خلكان أنه ضرب فى العشر الأخيرة من رمضان سنة ٢٢٠ هـ ، ثم وجّه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر إليه وقال : والله لقد رأيت مَن ضرب ألف سوط فما رأيت أشد ضربا من هذا ، ثم عالجه ، وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات سنة ٢٤١ هـ [٢] .

ولم يزل ابن حنبل بعد ضربه يحضر الجمعة والجماعات ويُفتى ويحدّث إلى أن مات المعتصم (سنة ٢٢٧) هـ ، وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة ، وقال للإمام أحمد : لاتجمعن إليك أحدا ، ولاتساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفيا لايخرج إلى صلاة ولاغيرها حتى مات

---

(١) أى أسل دمه ، من ذم أنفه وذن : إذا سال.

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٤٩ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ١ : ص ١١٥ — ١١٧ ووفيات الأعيان ج ١ : ص ١٧ ومروج الذهب ج ٢ : ص ٣٤٨ .

الواثق (سنة ٢٣٢ هـ) وولى المتوكل ، فكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، ومنع الناس من المناظرات فى الآراء والمذاهب ، وقرّب منه أهل السنة ، وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه وأطلق له مالا كثيرا فلم يقبله ، وفرّقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم ، فلم يرض بذلك ، ولم يحفل المتوكل بالمعتزلة فخمدت نارهم ، وتضاءل أمرهم (١).

وممن عضته هذه المحنة بأنيابها فى عهد الواثق أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطى (٢) المصرىّ صاحب الإمام الشافعى ، دعى إلى القول بخلق القرآن فامتنع منه ، فحمل — فيمن حمل — من مصر إلى العراق مقيدا حتى مات فى أقياده محبوسا صابرا على ما أصابه من الأذى وكان مقيدا إلى أنصاف ساقيه ، مغلولة يداه إلى عنقه . قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل وفى عنقه غُلّ ، وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق « بكن » فإذا كانت « كن » مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا ! فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت عليه — يعنى الواثق — لأصدقنه ، وقال الربيع أيضا : كتب إلىّ أبو يعقوب من السجن : إنه ليأتى على أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى ، وتوفى سنة ٢٣١ هـ فى القيد والسجن ببغداد (٣) .

ومنهم نُعَيْم بن حمّاد ، وقد مات فى سجن الواثق مقيدا أيضا (٤).

ومنهم أحمد بن نصر الخزاعىّ . قتله الواثق وصلبه سنة ٢٣١ هـ ، ذكروا أن

(١) حياة الحيوان للدميرى ج ١ . ص ١١٥ — ١٢٢ ومروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩

(٢) نسبة إلى بويط وهى قرية بصعيد مصر .

(٣) تبيين كذب المفترى ص ٣٤٨ ووفيات الأعيان ج ٢ : ص ٣٤٧ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٥ : ص ١٧٧ .

ثمامة بن أشرس سعى به إلى الواثق ، وذكر له أنه يكفّر من يقول بخلق القرآن ، ومن ينكر رؤية الله تعالى يوم القيامة ، فأحضره الواثق وقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أفخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أفترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية ، فقال : ويحك ؟ يرَى كما يرى المحدود المتجسّم ؟ يحويه مكان ، ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته ، ماتقولون فيه ؟ فقال عبد الرحمن بن إسحق — وكان قاضيا على الجانب الغربى ببغداد فعزل — هو حلال الدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبى دواد أنه كاره لقتله ، فقال للواثق : ياأمير المؤمنين ،شيخ مختلّ ، لعلّ به عاهة أو تغير عقل ، يؤخر أمره : فقال الواثق : ماأراه إلا مؤدًّيا لكفره ، ودعا الواثق بالصمصامة ، وقال : إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى ، فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لانعبده ، ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ، ثم أمر بالنِّطع فأجلس عليه وهو مقيد ، وأمر بشدّ رأسه بحبل وأمرهم أن يمدوه ، ومشى إليه حتى ضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد ، فصب فى الجانب الشرقى أياما ، وفى الجانب الغربى أياما ، وتتبع رؤساء أصحابه فوضعوا فى الحُبُوس ، ولم يزل رأسه منصوبا ببغداد ، وجسدُه بسُرَّ من رأى ست سنين ، إلى أن حُطّ وجمع بين رأسه وبدنه(١) .

وذكر البغدادى فى « الفرق بين الفرق » أن ثمامة خرج إلى مكة ، فرآه الخزاعيون بين الصفا والمروة ، فنادى رجل منهم : يا آل خزاعة ، هذا الذى سعى بصاحبكم أحمد بن نصر وسعى فى دمه ، فاجتمع عليه بنو خزاعة بسيوفهم حتى قتلوه ، ثم أخرجوا جيفته من الحرم فأكلته السباع خارجا من الحرم .

وذكر الخطيب البغدادى فى تاريخه أن محمد بن الواثق — وهو الملقب

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥٩ ، وتاريخ بغداد ج ٥ : ص ١٧٣ — ١٨٠ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ١ : ص ١١٩ ومروج الذهب ٢ : ٣٦٣ .

بالمهتدى بالله قال : كان أبى إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا ذلك المجلس ، فبينما نحن ذات يوم عنده إذ أتى بشيخ مصفود مقيَّد . فقال أبى : إيذنوا لأبى عبدالله يعنى ابن أبى دواد وأصحابه ، وأدخل الشيخ فى مصلاه ، فقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال له : لاسلم الله عليك! فقال : ياأمير المؤمنين ، بئس ماأدبك به مؤدبك ! قال الله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » والله ماحيَّيتنى بها ولا بأحسن منها ، فقال ابن أبى دواد : يا أمير المؤمنين ، الرجل متكلم ، فقال : كلمه ، فقال : ياشيخ ، ماتقول فى القرآن ؟ قال: أنصفنى(١) فى السؤال ، فقال له : سل . فقال الشيخ : ماتقول أنت فى القرآن ؟ قال : مخلوق ، فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم والخلفاء الراشدون أم شيء لم يعلموه ؟ فقال : شيء لم يعلموه ، فقال : سبحان الله ! شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا الخلفاء الراشدون ، تعلمه أنت ! فخجل وقال : أقلنى ، فقال قد فعلت ، والمسألة بحالها ، قال : نعم ، قال : فما تقول فى القرآن ؟ قال : مخلوق ، قال : هذا شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه ؟ قال : علموه ولم يدعوا الناس إليه ، فقال : أفلا وسعك ماوسعهم؟ قال : ثم قام أبى فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا الخلفاء الراشدون ، تعلمه أنت ؟ سبحان الله ! شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء الراشدون ولم يدعوا الناس إليه ، أفلا وسعك ماوسعهم ؟ ثم دعا عمارا الحاجب فأمره أن يرفع القيود عنه ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له فى الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبى دواد ولم يمتحن بعد ذلك أحدا (٢)

---

(١) نصف الشيء وأنصفه : أخذ نصفه . (٢) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ١ : ص ١١٩

وأورد الدميرى هذه الحكاية أيضا بطريقة أخرى قال :

قال المهتدى بالله : مازلت أقول القرآن مخلوق صدرا من خلافة الواثق حتى أقدم علينا أحمد بن أبى دواد شيخا من أهل الشام من أهل أذنة ، فأدخل الشيخ على الواثق مقيدا وهو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة ، فرأيت الواثق قد استحى منه ورق له ، فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه ، فسلم الشيخ بأحسن السلام، ودعا بأبلغ الدعاء وأوجز ، فقال له الواثق : اجلس ، ثم قال له: ياشيخ، ناظر ابن أبى دُواد على مايناظرك عليه ، فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين ، إن ابن أبى دواد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، فغضب الواثق وعاد مكان الرقة له غضبا ، فقال أبو عبد الله بن أبى دواد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت ! فقال الشيخ : هون عليك ياأمير المؤمنين مابك ، وأذن لى فى مناظرته ، فقال الواثق: مادعوتك إلا للمناظرة ، فقال الشيخ : يأحمد ، إلام دعوت الناس ودعوتنى اليه ؟ فقال : إلى أن تقول القرآن مخلوق ؛ لأن كل شيء من دون الله مخلوق ، فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت أن تحفظ علىّ وعليه مانقول ، قال : افعل ، فقال الشيخ : يأحمد ، اخبرنى فى مقالتك هذه ، أواجبة داخلة فى عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ماقلت ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : يأحمد اخبرنى عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل ، هل ستر شيئا مما أمره الله فى دينه ؟ قال : لا . قال الشيخ : فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى مقالتك هذه ؟ فسكت ابن أبى دواد ، فقال له الشيخ : تكلم ، فسكت، فالتفت الشيخ إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، واحدة ، فقال الواثق : واحدة ، فقال الشيخ : يأحمد أخبرنى عن آخر ماأنزل الله من القرآن على رسول الله ﷺ ، فقال : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال الشيخ: أكان الله تبارك تعالى

الصادق فى إكمال دينه . أم أنت الصادق فى نقصانه ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه ؟فسكت ابن أبى دواد ، فقال الشيخ : أجب يا أحمد فلم يجب ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين،اثنتان ، فقال الواثق : اثنتان ، فقال الشيخ : يا أحمد أخبرنى عن مقالتك هذه ، أعلمها رسول الله أم جهلها ، فقال ابن أبى دواد : علمها ، فقال الشيخ : أدعا الناس إليها ؟ فسكت ابن أبى داود : فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ثلاث ، فقال الواثق : ثلاث ، فقال الشيخ : يا أحمد ، فاتسع لرسول الله كما زعمت فلم يطالب أمته بها ، قال : نعم ، فقال الشيخ : واتسع لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، قال : نعم ، فأعرض عنه الشيخ وأقبل على الواثق وقال: ياأمير المؤمنين ، قد قدمت القول أن أحمد يقل ويضعف ويصغر عن المناظرة ، يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ولأبى بكر وعمر وعثمان وعلى فلا وسع الله على من لم يتسع له ما اتسع لهم من ذلك ،فقال الواثق : نعم اقطعوا قيد الشيخ ، فلما قطعوه ضرب الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه فجذبه الحداد إليه ، فقال الواثق : دع الشيخ ليأخذه ، فأخذه ووضعه فى كمه ، فسئل فى ذلك ، فقال : لأنى نويت أن أتقدم الى من أوصى إليه إذا أنامت أن يجعله بينى وبين كفنى ، حتى اخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة ، وأقول : يارب، سل عبدك هذا لم قيدنى وروع اهلى وولدى وأخوانى بلا حق أوجب ذلك على وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكيت ، ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه ، فقال الشيخ : والله يا أمير المؤمنين قد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلا من أهله .فقال له الواثق : أتقبل منا صلة تستعين بها على دهرك ؟ قال : لاتحل لى ، أنا عنها غنى وذو ثروة ، وسلم عليه الشيخ وخرج ، قال المهتدى بالله : فرجعت عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم؟ (١)

أحمد زكى صفوت

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ١ : ص ١٢٧ .

الأدب والمتأدبون

للأستاذ محمد برانق

ثورة فى الأدب حقا ، تلك التى قامت فى رءوس الشداة من إخواننا الذين لم ينهلوا من الأدب ماينقع غلتهم ، وتعجلوا الزمن ، وأرادوه على أن يبكر بهم سنوات ، وأبوا إلا أن يكونوا منتجين ، وإن لم يأت زمن الحصاد بعد . وثورة أيضا أضرم نارها فى رءوس الأدباء ماراوا من هؤلاء مماعدوه استهانة بتلك الحرفة التى قدر الله عليهم أن تدركهم ؛ فقامت قيامة بعضهم فى هذه الأيام، فرفعوا أصواتهم ، وسالت نفوسهم على أسلات أقلامهم ، منادين بأن الأدب قد تجنى عليه قوم ، فأضاعوا كرامته ، وأساء إليه صبيان حشروا أنفسهم بين الأدباء حشرا ، وفرضوا هذيانهم على الأدب فرضا ، فأدخلوا فيه مالا يصح أن يكون منه ، أو أن ينسب إليه ، وجاءت منتجاتهم نكبة على اللغة ،وطامة كبيرة على الأدب العربى ؛ لأنهم يظنون أنهم سيكون لهم من وراء مايصنعون شهرة واسعة ، ويصور لهم خيالهم الكاذب أن وريقات ينفق على طبعها وتزيينها، وإخراجها للناس ؛ بعض المال — لعل بطنه كان أحوج إليه من كتابه — ستجعل اسمهم معروفا عند الخاص والعام ، وأنه سيكون له ذكر يطبق الخافقين، وأنه حيث يسير يشير إليه الناس بالبنان ، وأن عيون جميع الذين يقابلونه تكون شاخصة إليه ، معجبة به ، مفتونة بما أنعم به على الأدب من جهد ضم إليه ثروة جديدة ، فيها معان مبتكرة ، وأساليب مستحدثة ، وأخيلة لم يحم فى جوها متقدم ولا متأخر .

رفقا بأنفسكم أيها الأدباء ، فإن مصيبة الأدب بمثل هؤلاء ليست بنت

اليوم ، وليست وليدة هذه السنين ؛ ولكنها وجدت مع الأدب منذ عرف الناس الأدب ، فهى قد سايرته مع الزمن ، وظلت باقية إلى اليوم ، وستظل كذلك مادام الأدب حيا . « رووا أنه جاء رجل إلى أبى عمرو بن العلاء فقال: إن ابنى هذا يقول الشعر ، فأحب أن تسمع شعره ، قال : أنشد ، فلما أنشد وفرغ من إنشاده ، قال أبو عمرو لأبيه : الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشعرور ، وشويعر ؛ قال : فابنى من هو من هذه الثلاثة ؟ ، قال : ليس هو بواحد منهم»

ولولا وجود مثل هؤلاء لما قسموا الشعراء إلى هذه الأقسام التى نظمها بعضهم فى قوله :

الشعراء فاعلمن أربعة فشاعر ينشد وسط المجمعة
وشاعر آخر لايجرى معه وشاعر يقال خمر فى دعة
وشاعر لايرتجى لمنفعة

وقد زاد عليها أحد الظرفاء : وشاعر مستوجب أن تصفعه .

وأنت إذا بحثت بحثا تاريخيا أدبيا فى أى عصر من عصور الأدب، وجدت الجيد والزائف ، وصادفك الغث والسمين ، ووقعت على الرفيع والوضيع ، فيكون هذا مبعث إعجابك وإجلالك ، وذاك محل سخطك، وموضع ازدرائك، فإذا قضى جيلنا الذى نحن فيه ، وخلف من بعدنا خلف عنوا بدراسة تاريخ الأدب ؛ وجدوا بجانب جيدكم ردىء غيركم ، فينصفكم التاريخ وينصفهم ، ويقدركم ويقدرهم ؛ فهونوا عليكم ، ولاتشفقوا على ثمرة قرائحكم، فإن فى رءوس الناس عقولا تفكر ، وأدمغة تقدر ، والصالح يبقى ، وغير الصالح مقضى عليه بالفناء قبل أن يدرج ؛ وذلك ناموس الحياة ، وشأن كل شىء .

حكى يوسف بن يحيى بن على المنجم عن أبيه ، قال : أكثر هذه الأشعار الساذجة الباردة تسقط وتبطل إلا أن ترزق حمقى فيحملون ثقلها ، فتكون أعمارها بمدة أعمارهم ، ثم ينتهى الأمر بها إلى الذهاب ، وذلك أن الرواة

ينبذونها ، وينفونها ، فتبطل . قال الشاعر :

يموت رديء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله

ويظهر أن ضياء الدين الموصلى صاحب المثل السائر كان يتكلم بلسانكم يوم قال : «وقد رأيت جماعة من متخالى هذه الصناعة ، يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغثاثة والبرد ، يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ، ولا يشك فى أنه صار كاتبا مفلقا ، وإذا نظر إلى كتاب زماننا ، وجدوا كذلك ، فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار ، ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ، ولو أنه لا يتطاول إليه إلا أهله لبان الفاضل من الناقص على أنه كالرمح الذى إذا اعتقله حامله بين الصفين ، بان به المقدم من الناكص ، وقد أصبح فى يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم . وقد قيل : إن الجهل بالجهل داء لا ينتهى إليه سقم السقيم » . اهـ من المثل السائر ص ١٣٦

وأما إخواننا الشداة فى الأدب ، فلعلهم لا يعرفون عن المتنبى وأبى تمام وعن عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس وغيرهم أكثر من أسمائهم ، ولعلهم لا يحفظون لشوقى وحافظ أكثر مما جرى على ألسنة صبية المدارس .

فإنى أنصح لهم ، مشفقا عليهم ، رحيما بهم ، غير محتاج إلى رضاهم ، وغير مبال سخطهم ، أن يبدءوا بأنفسهم ، فيتزودوا من الأدب ما اتسع لهم وقتهم ، وأن يتوفروا على دراسة فنونه المختلفة ، حتى يحصل لهم من ذلك شيء كثير ، وأن يقرءوا ما كتبه أحمد بن يوسف الكاتب لأخيه . وكان قد سمع له شعرا ، كتب به إلى هوى له ، فلم يقع ذلك الشعر من نفسه موقعا حسنا . قال أحمد : وفقك الله يا أخى للسداد ، وهداك للرشاد ! قرأت لك شعرا أنفذته إلى من تخطب مودته ، وتستدعى عشرته فسرنى شغفك بالأدب ، وساءنى اضطرابك فى الشعر ، وليس مثلك من أخرج من يده شيئا يعود بعيب عليه ، وأعيذك بالله

أن تلج لجة الشعر بلا عزم ينجيك منها، وسباحة تصدرك عنها، فتنسب إلى قبيح أمر هويت النسبة إلى حسنه، فاعرف الشعر قبل قوله، واستعن على عمله بأهله، ثم قل منه ما أحببت، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت . اهـ

ثم ساق له شعرا ضمنه معنى ما نثره له. فإذا فهموا هذا أخذوا أنفسهم به، وإذا أرادوا بعد ذلك أن يجربوا خاطرهم، فليكن ذلك بينهم وبين أنفسهم فإن أعجبهم ماينتجون إن صح أن يسمى إنتاجا - فعليهم أن يقدموا أنفسهم إلى إخوانهم الأقربين، الذين يمحضونهم النصح، والذين لهم عقل يزنون به ما يبسط أمامهم، فليس كل أخ نصوحا، وليس كل نصوح قادرا على أن يميز الجيد من الرديء؛ وعليهم بعد ذلك أن يوسعوا دائرة الاستشارة، فيعرضوا أمرهم على من هم أدباء حقا، فيهدونهم الصراط المستقيم، صراط الذين هداهم الله وبصرهم، ووفقهم إلى ما فيه صلاحهم، وصلاح لغتهم . ولا يقصدون مثل أبي الجهم بن أبي سفيان بن أبي العلاء، يوم أناخ برفقته - هو وأبي عمرو ابن العلاء في أثناء منصرفهم من الحج - رجل أخذ يسأل عن أبي عمرو، فأرشد إليه فقال: إنك قد ذكرت لي، وقد قلت شعرا، فأحب أن أعرضه عليك . فقال أبو عمرو: هذا منصرفنا من الحج، ونحن في شغل عن الشعر؛ فقال له أبو الجهم: إلي، فإنك تصيب عندي ما تصيب عنده. فأنشده:

لئن قدمت من دمشق صالحا   وقد تمتعت متاعا صالحا
لآتين بالعراق صالحا   إني وجدت صالحا لي صالحا

فقال له: أنت أشعر الناس !! . فرد عليه أبو عمرو: ياعدو الله، أتغري الرجل؟ . أما تخشى الله؟ فمثل أبي الجهم صادقا أو مازحا لا يستشار .

وكما أن لهذه الصناعة الأدبية دخلاء، فإن لغيرها من الصناعات: كالطب والتدريس دخلاء أيضا، فليس الادعاء مقصورا على تلك الصناعة، كما قال صاحب المثل السائر في كتابه ص ١٣٧ « ومن أعجب الأشياء أني لا أرى

إلا طامعا فى هذا الفن ، مدعيا له ، على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه ، ولا أرى أحدا يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه ؛ هذا وهو بحر لا ساحل له ، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة ، حتى ينتهى إليه ، ويحتوى عليه ، فسبحان الله ؛ هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه ، أو طبيب ، أو حاسب ، أو غير ذلك ، من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها » اه . ويظهر أن زمانه غير زماننا ، فإن الأدعياء لم يتركوا شيئا من غير أن يزجوا بأنفسهم فيه ، إلا أن الأدب أكثر نصيبا من غيره من الفنون ، فليعلم هؤلاء أن الطريق التى يسلكونها طريق شائكة ، كلها شر ، وكلها ضر ، فلا تعرف الخير ، ولا يعرفها الخير ، وهم بذلك غير شاعرين ؛ لأن ما هم فيه من النشوة ، وما هم عليه من الغرور ، وما يغمرهم من الخيال الكاذب ، يحول بينهم وبين معرفتهم حقيقة أمرهم ؛ فتبصروا قليلا ، وتأكدوا ما دام فى الأجل فسحة ، وما دامت العزائم مشحوذة ، وما دام فى الأمة من يقدر الناس قدرهم ، فسيكون فيكم خير كثير ، وستنالون ما تبتغون من شهرة ومال . وإن الحدث الذى يريد أن يخرج للناس كتابا لا يكاد يبدؤه حتى يرى نفسه قد أتمه ، لا يمكنه أن يقدم لنا ثمرة ناضجة شهية . فإن الثمرة تحتاج فى نضجها إلى وقت طويل . وليرجع إلى المتقدمين ليرى أن زهيرا أحد فحول الشعراء كان ينشىء القصيدة الواحدة فى سنة كاملة ، وكان يعود إليها بالتهذيب والتحسين والتعديل ، فيحذف ويضيف ، ويستبدل بكلمة كلمة أخرى . ويرتب الأبيات حتى إذا خرج بعد ذلك وأنشدها ، جاءت درة فى جبين الشعر العربى . وهو إنما كان يفعل ذلك لأنه كان رجلا عاقلا ، يعتقد أنه إنما يعرض على الناس عقله وقلبه معا ، فإن أتى بالمعجب الجميل أعجبهم ، وكانوا جميعا ألسنة ثناء عليه ، وطار الرواة بقصيدته بين الناس فحملها الخاص والعام على ظهر لسانه . وإن أتى بالقبيح المبتذل أسقطه الناس من نفوسهم ، وسلقوه بألسنة حداد . وقد قال العماد الأصفهانى . إنى رأيت

أنه لايكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ؛ وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر . ا ه . وإن قليل البصر بالأدب عندما يتصدى لإخراج كتاب للناس ، وليس عنده فى خزانة عقله وكتبه مايستطيع أن ينفق منه ، يضطر اضطرارا — وله العذر طبعا — إلى أن يتطلع إلى حاجة صاحبه ، فينهبها ويشوهها ، حتى يضيع معالمها ، ويدعيها لنفسه ؛ ظنا منه أنها ستخفى على الناس فلا يعرفونها، وهذا هو الذى سموه السرقات الأدبية . التى كثر الكلام عنها فى الشهور الأخيرة ، وخاض الكاتبون فيها كل مخاض ، وتربص بعضهم لبعض ،وشهر كل نزيه لأخيه قلمه ، يصلى به السارق من لاذع الكلام ألوفا ، وأظهروا الأسى والحسرة لوجود النفوس الضعيفة المستهينة الجريئة فى التزوير إلى حد يجعلها تسطو عيانا على مايبذل فيه غيرهم جهدا قد يكون عظيما ، وينشرونه فى صحيفة سيارة ، قد يقرؤها الألوف من الناس ، فيبدو لهم مالم يكونوا يحتسبون من افتضاح أمرهم . وانكشاف سترهم ؛ ثم هم لايبتغون نفقا فى الأرض ، يتوارون فيه عن أعين أصدقائهم وإخوانهم ، بل يتبجحون ويمارون ، وكأنما لم يلقموا فى أفواههم أحجارا ؛ وهؤلاء نضب ماء الحياء من وجوههم ، حتى لم يبق منه قطرة ، ولا بعض قطرة . وأى صنف من الناس أقل حياء ، وأكثر تبجحا من هؤلا . ألا ترى أن السارق الذى يسلبك مالك ، أو متاعك ، يمعن فى الأرض كى يعجز الشرطة هربا . حتى لاتقع عليه أعينهم ، فتقبض عليه ، وتسلمه إلى قضاء عادل ، فينال عقوبتين : أولاهما محاسبته حسابا عسيرا على سرقته ، وثانيتهما افتضاح أمره ، وليست الثانية أقل خطرا من الأولى ، بل هى أعظم منها أثرا ، وكلما كان الجانى أعلى مقاما ، وأعز نفسا ، كان افتضاحه الأدبى أبشع وأشنع . وهذا ينحل نفسه قولة قلتها ،أو كلمة حبرتها ، أو يسلبك

فصلا من كتاب ألفته، أو يلتقط من فيك بحثا تحاضر فيه ملأ من الناس، أو يدون مذكرة من لسان أستاذه فى درس، أو غير ذلك، وإذا جعلت السارقين درجات، بعضها دون بعض، كان سارق كنوز العقول، وناهب بنات الأفكار، مستقرا فى أحط الدرجات، منبوذا فى أدنى المنازل، تقتحمه الأنظار، وتتخطاه الأبصار؛ فهو ليس فى المجتمع أكثر منزلة من تلك الحشرة الدنيئة التى تكمن بين طيات ثيابه، ثم تمتص غذاءها من طعامه المهضوم، وتستحله لنفسها هنيئا سائغا. والسرقات الأدبية وإن مهرت فى هذه الأيام كثيرا، وجرى ذكرها على لسان كثير من الكاتبين؛ لأن بعض المغرورين من الشبان تورط فيها من غير تعقل ولا روية، فنسبوا لأنفسهم ماليس لهم، فنبذهم لهم أربابه، وأظهر خبيئتهم من يعز عليهم أن يندس بين الأدباء والكاتبين أوغاد أنذال ضعاف النفوس، فاقدو المروءة، جرآء على الفضيلة، رقاق الأعراض، خفاف الأقدار؛ وامتنع من هذا أن يجمع إنسان كلاما، ثم يتجنى بحسه الكدر، وذوقه المريض على الأدب والأدباء، ويحشر نفسه فى زمرتهم، ويقوم بطبع ماجمعه فى وريقات يضمها بين دفتين، ويسميها كتابا. وقد يجيء بمقدمة يصنعها هو، ويزيلها باسم كاتب معروف، ويظهر بعد ذلك أن هذا الكاتب المعروف لايعرف الكتاب، ولاصاحب الكتاب حتى يكتب له مقدمته، ثم ينبرى لتكذيب مانسب إليه. فيابؤس لهذا الزمن الذى يبلغ فيه تبجح ضعاف النفوس إلى هذا الحد.

إنا لفى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

ولا نخلى الصحف بعد ذلك من العتب، فإنها تفسح المجال لهؤلاء، وتنشر فصولا لهم ولأصدقائهم كلها مدح فيهم، وثناء عليهم، والجرائد مدرسة الشعب يتعلم منها، ويتأثر بها، فهى توجهه حيث تريد، فإذا أشادت بذكر هذا

النوع من الأدب ، شغلت الناس عن الصحيح منه ، ويظنون أنهم يقرءون لونا عاليا من ألوان الأدب .

ولا نقيس نضج هؤلاء بأنهم يأتون بكل شيء جديد ، فليس الذى ينظم قصيدة مثلا يجب عليه أن يأتى بجميع معانيها جديدة ، لأن هذا أمر ليس فى طوق أحد ، ولكنه فوق طوق البشر جميعاً . وإنما نريدهم أن يكونوا جدد القلوب جدد الأقلام ، جدد المعانى ، ماوسعهم هذا ، ألا ترى أن أبا تمام الشاعر الفحل يعده المتأدبون شيخ المخترعين للمعانى ، لأنه أكثر الشعراء اختراعا . ولكن كم معنى اخترعه أبو تمام ؟ . إذا كنت لا تعرف ماأحصوه له من المعانى الجديدة ، وعرفت أنه إمام المخترعين ، ظننت أنه كان يخترع فى كل قصيدة له معنى أو أكثر ، فيزيد عدد هذه المعانى على ألف معنى ، ولكن الواقع غير هذا ، فإن مجموع ماأحصوه له عشرون معنى جديدا أو أكثر قليلا ، وهذا القدر جعله على رأس المخترعين . اقرأ ماذكره ضياء الدين الموصلى فى كتابه المثل السائر ص١٢٥ : «وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى وقد عددت معانيه المبتدعة ، فوجدت مايزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك . ا هـ . فإذاً أبو تمام لم يخترع أكثر من عشرين معنى ، فمعانيه الكثيرة الباقية مأخوذة من غيره ؛ ولكن لا يحسن الأخذ إلا من يحسن المعرفة . قال الأخطل : نحن معشر الشعراء أسرق من الصاغة .

وبعد : فلا ندرى من ذا الذى يعتبر نفسه من أولئك الذين نشدد عليهم النكير ، ونقصدهم بهذه الكلمة ، فيكون لهم من وراء ذلك عبرة تحول بينهم وبين العود إلى مثل هذا .

ولا يظن هؤلاء الذين نعنيهم بتلك الكلمة أننا نتحامل عليهم ، أو نريد بهم سوءا ، فإن الأمر أهون من ذلك . وأنا إذ أتحدث إليهم ، أريد لهم الخير بألا يتعجلوا الزمن ، وبأن يتربثوا ، فالمستقبل لهم إذا دأبوا على التحصيل ،

وليعلموا أنهم خير ألف مرة من كثير ممن نعرفهم من الذين هيأتهم طبيعة عملهم لأن يكونوا من الذين يمتون إلى الأدب بصلة ، ولكنهم يوم تركوا مدارسهم وحصلوا على شهاداتهم ، تركوا فيها عقولهم ، وخلفوا بين جدرانها أساس ثقافتهم ، واعتقدوا أنهم ماداموا يتقاضون من خزانة الدولة آخر كل شهر مايكفل لهم العيش ، فقد أمنوا كل شر ، وضمنوا السعادة لأنفسهم ، وقضوا أوقاتهم جلوسا على المقاهى ، يتندرون ويسخرون ، وليتهم يصونون ألسنتهم ويغفلونها عمن ذهب فى الحياة مذهب الجد ، وجعل هواه فى كتبه ، يتوفر عليها ، وإنما هم إن أتى بالمعجب اتهموه ، وإن أتى بغيره سلقوه ، فويل لهم وويل للأمة منهم ؟

محمد أحمد برانق

مرثيـــــة

للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

المدرس بالإبراهيمية الثانوية

«ألقاها فى حفلة التأبين التى أقامها أبناء دار العلوم
للمغفور له حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا
بمسرح حديقة الأزبكية»

قرَّحتْ جفنَـه الدموعُ الغزارُ   منذ شاءت بكاءَه الأقدارُ
ورث الحزنَ من أبيه ونالت   منـه ميراثها البنونَ الصغارُ
فارق الخلد والنعيم لدنيا   منتهى عمـرها ليال قصار
يثب الموت بينهنّ كما شـا   ء ويغتال أينَمَا يختـار
ضاحكا ساخرا وكل كَمِىّ   قلبُـهُ مِن لقائه مستطار
قــدَرٌ يصرع الرمية جبا   ر عنيــد قد سنَّه جبار
وتزول الجبال منــه وشمس ال   كونِ والكونُ والدجى والنهار
ولدى اللهِ بعد ذلك جنـا   تُ نعيم عريضةٌ أو نار

✡✡✡

ليت شعرى أأمسك الدمعَ جفنٌ   أم ثوت مهجة وفيهـا اصطبار
حين قال النعىّ مات وأصفَتْ   من حمـاها . ومرتجاها الدار
وخلا الغمد من حسام حروب   صــارم النصل حده بتار
رُوِّع الغيل فى فتاه المفدَّى   والذى فى حماه يُرْعى الذمار
والذى شــيد البنـاء وأرسـا   ه ســدادٌ من رأيه واقتدار
والذى فاخر الزمان بعزم   عبقرىّ له يذل الفخار

وهو أغنى من أن يقول جهول ما اسمه ؟ ما فعاله ؟ ما النجار ؟
هو مجـــد وحسبه أنه المجـــدُ بل المجـد من علاه مُعَار

***

أىُّ فخـــر وأى منهج فخـــر لم يقم فيـــه للفقيد منارُ ؟
مُشرِقُ الرأى عند كل جليل إن يُحجَّبْ وَجهَ البدور السِّرار
وتراه محمداً ثمَّ محمـــو دا كريما بعطفه يستجار
يظفر العذر من لدنه بعفو ويُرَدُّ الإعسار وهو يسار
ولدى الخطب والكريهة ليث زائر فى عرينه أسْـــوَار
مُخْطِرٌ روحه قوى لدى الشدْ دِ جرىء مصمم صَبَّار
فيه بأس الصعيد يرهبه البأ س ويخشى جِلادَه الإعصار

***

لهف نفسى ولو شفت لهف نفسى لأصَمَّ الزمان منى جؤار
كان جيلا من الشئون جليلا وكبيرا ماشانه استكبار
ذا أناة كأنه الدهـــر إمها لا ولكنه الحجا والحِذَار
رب يوم تفرَّقَ القوم فيـــه وكذا تفعل الأمور الكبار
قد دعا قومه لرأى جـــديد فبغت ألسن وقالت : عِثَارُ
واختلاف الآراء منفعة النا س ولولاه كان مات الخيَار
يبتنى الفردُ رأيه لَبِنَات لبِنات يصيبهن الخسار
وترى الرأى حول كل خلاف أمره بحكم الفتيل مغار

***

ودَّعت مصر شيخها ابن سليما نَ ومصرٌ لها الوفاءُ شعار
وبكته دار العـــلوم بشجو مثلما قد بكت نزارا نزار
وكست نعشه مع العلم الأخ ضر بندا نجومُه الأشعار

ودَّعَ الساحلَ النضير رُبَاهُ لرُبَا ساحلٍ حـــلاه نضار
أبيضَ الوجه طيب العرف طابت من شذاه الرياض والأزهار
ومضى والديار تبكى عليــه لديار بهـــا يطيب الجوار
هل يؤود الغبار كاهل نَدْب لم يؤده من الحروب غبار
أو يهاب العثارَ من حصَّنَ الدنـ ـيـــا بدين فـــلم يغبره عار ؟

٭٭٭

فعزاء يا آل مصر جمـــيلا وعزاء يأيهـــا الأحـــرار
وعـــزاء بنيه والصـــبر برٌّ بأبيكم وأنتم الأبرار
وانهجوا نهجه فإن أباكم كان يمشى فى ظله الانتصار

عبد العزيز سيد الأهل

أسبوعان فى الواحتين الخارجة والداخلة

بقلم

الأستاذ الشيخ أحمد على حسين

مفتش المعارف لمنطقة قنا

المقدمة : —

حينما كنت طالبا درست جغرافية الواحات وتاريخها دراسة علمية، فتاقت نفسى إلى رؤيتها، وبخاصة الواحتين الخارجة والداخلة، ولا أدرى لذلك من سبب سوى أنهما قريبتان من مديريتى قنا وأن أهلهما يتزاوران مع أهلها وكنت كلما هممت بتنفيذ تلك الرغبة لم أجد لذلك سبيلا ، وإذ عينت مفتشا لمنطقة قنا وكانت مدارس الواحتين المذكورتين تابعة لها وجدت الفرصة سانحة لزيارة تلك الجهات والإشراف على حالة التعليم بها فوطدت العزم على ذلك، وتخيرت فصل الربيع لاعتدال الجو فيه إذ أن تلك الجهات شديدة البرد شتاء، والحر صيفا .

بدء السفر : —

سافرت من قنا بالقطار فى الساعة الثالثة من مساء يوم السبت ٨ صفر سنة ١٣٥٧ الموافق ٩ أبريل سنة ١٩٣٨ وصحبنى من محطة دشنا حضرة حسن عبد السيد أفندى مفتش المعارف بها ـ وكانت تتبع دائرته مدارس الواحتين ـ ووصلنا إلى محطة المواصلة ـ إحدى محطات مركز نجع حمادى ـ ومنها يبدأ

الخط الحديدى إلى الخارجة . وكانت سيارة مصلحة السكة الحديدية فى انتظارنا فأقلتنا إلى محطة القارة فبتنا فى استراحتها ليلة الأحد ١٠ أبريل سنة ١٩٣٨ فى انتظار قطار الواحات الذى يبرح محطة المواصلة فى الصباح الباكر من يوم الأحد أسبوعيا مارا بالقارة فى طريقه، وهى إحدى بلاد مديرية قنا .

من القارة الى الخارجة: يوم الأحد ١٠ أبريل سنة ١٩٣٨ :

غادرنا القارة فى الساعة السادسة من اليوم المذكور بالقطار وكان مؤلفا من ثلاث عربات صغيرة إحداها لركاب الدرجتين الأولى والثانية وثانيتها لركاب الدرجة الثالثة وثالثتها للبضائع وكان يسير على شريط ضيق فى صحراء واسعة تكتنفها جبال شاهقة ومغارات وكهوف متعددة وكلها من الرمال، بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة ، وسرعته تزيد أحيانا وتنقص حتى لا تتجاوز سرعة عربة النقل فيتمكن الراكب من النزول والصعود بسهولة، وقد راعنا ما رأيناه فى نقطة ضيقة تسمى (الرَّ فوف) من انحدار قضبان السكة الحديد إلى أسفل مسافة ١٥ كيلو مترا وعلى يسارها هوة عميقة يكاد القطار يتردى فيها، ولو أن مصلحة السكة الحديد وجهت عنايتها إلى تلك الجهة وردمتها لسار القطار فى أمن، واستحقت على ذلك الشكر . ويقوم بإصلاح الطريق عمال المصلحة يقيمون فى محاط صغيرة — حجرة واحدة بها مسرة تصل بين تلك المحاط وبين المواصلة والخارجة — وينقل إليهم القطار الماء فى مستودع خاص .

وفى الطريق بقعة حجرية يقال لها وادى البطيخ لأن أحجارها صغيرها وكبيرها على هيئة البطيخ ويمر القطار بآثار المحاريق — قبل الخارجة بمقدار ٣٥ كيلو مترا — التى كانت سابقا منفى للمجرمين المصريين فى صحراء منبسطة المدى لا ماء فيها ولا نبات . وبعد أن اجتازها القطار سار بسرعة فى سهل مستو إلى عزبة الشركة قبل الخارجة بمقدار ١٥ كيلو مترا تقريبا، وفيها كثير من المزارع

المختلفة والأشجار المتنوعة ،وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم وصلنا بلدة الخارجة حيث انتهى الخط الحديدى .

بلدة الخارجة :

جعلت مصلحة الحدود الواحتين محافظة سمتها « محافظة صحراء الجنوب » تضم مركزى الخارجة والداخلة، وبلدة الخارجة عاصمة المحافظة ، وفيها يقيم المحافظ تبعد عن المحطة بكيلو متر ويصل الداخل إليها من طريقين أحدهما من الجهة الجنوبية ولكنه غير معبد وكثير المنخفضات والمرتفعات ،والآخر من الجهة الشمالية أرضه معبدة وعلى جانبيه أشجار باسقة أكثرها من شجر الكافور وهذا الطريق يؤدى إلى دار المحافظة ومبنى المدرسة الابتدائية (وهى للبنات والبنين) ومدرسة المبانى الأولية واستراحة فخمة للحكومة : أربع حجرات بينها أبهاء وبها مرافق صحية ، وفناء رحب فيه حمام للسباحة خصص لكل طائفة يوم يسبحون فيه . وبالقرب من دور الحكومة مساكن الموظفين،حولها الحدائق الغناء والممرات الواسعة، وكل مسكن مستقل عن غيره ،ويصل إليها الماء والنور من آلة بخارية خاصة ، وبين دار المحافظة ومساكن البلدة كيلومتر يقطعه المار فى شارع منتظم تزين حافتيه الأشجار — وبجوار المزرعة ١٥ فدانا من أشجار الفاكهة والزيتون وفى مدخل البلدة متنزهات عامة ومبنى النادى ومسجد عظيم بناه حضرة صاحب العزة محمد بك وصفى المحافظ وأمامه دار المحكمة الشرعية وبقربه مبنى مدرستى البنين والبنات الأوليتين ومستشفى الحكومة ثم مساكن الأهالى وهى عادية وبينها شوارع لا بأس بها وفى وسطها عين تسمى (عين الدار) تتدفق منها المياه بكثرة فيشرب منها الأهالى ويسقون ماشيتهم وزراعتهم، وفى الجهة الجنوبية من بلدة الخارجة استراحة السكة الحديد وهى غير مريحة والكثير من نوافذها لا زجاج له فيقاسى النازل فيها آلام البرد الشديد، ويدفع ثمن بترول الإضاءة والصابون كما يدفع ٢٠٠ مليم عن كل ليلة يقضيها فيها،

لافرق بين موظف صغير أو كبير (كأن مصلحة سكة الحديد لاتعترف بمنشور وزارة المالية رقم ٩ لسنة ١٩٣٦ الذى يقضى بتخفيض ٥٠ مليما من نفقات بدل السفر عن كل ليلة يقضيها الموظف فى منزل أعدته الحكومة أو أية سلطة محلية مادام مرتبه لم يتجاوز ٤٠ جنيها فلعل وزارة المالية وقد اشتهرت بدقة المراجعة تنتبه إلى ذلك) وقد قضى علينا أن ننزل فيها يوم وصولنا وأن نقضى بها ليلة الاثنين ١١ أبريل سنة ١٩٣٨ لوجود إصلاح باستراحة المحافظة. وعلى بعد خمسة كيلو مترات من بلدة الخارجة معبد (هيس) وهو من أيام ملك الفرس (دارا الأول) وقد زرنا مدارس هذه البلدة فى يوم الاثنين ١٩٣٨/٤/١١ . وفى صباح يوم الثلاثاء ١٢ منه أزمعنا زيارة بقية بلاد المركز (جناح — بولاق — باريس) .

من الخارجة الى باريس والعودة اليها يوم الثلاثاء ١٢ منه :

يتفرع من الخارجة طريقان للسيارات أحدهما يسير غربا إلى الداخلة (وسنتكلم عنه عند السفر إلى الداخلة) والآخر يسير إلى الجنوب الغربى وهو الذى سلكناه فى صبحية يوم الثلاثاء ويبلغ طوله (من الخارجة إلى باريس) ٩٣ كيلو مترا تقطعها السيارة فى ساعتين ونصف بين جبال وعرة تارة وسهول منبسطة أخرى وهو طريق مخيف غير مطروق كثيرا فقد أجتزناه على طوله فلم يقابلنا فيه أحد، ولو أن سيارة تعطلت بركابها لظلوا تحت رحمة القدر . وعلى بعد ١٥ كيلوا مترا من الخارجة قرية جناح وقد زرنا مدرستها فى اليوم المذكور ولم نشاهد فى تلك القرية مايستدعى الذكر . وعلى بعد ١٣ كيلوا مترا منها قرية بولاق وهى عادية أيضا زرناها فى عودتنا إلى باريس يوم الأربعاء . وقد وصلنا فى يوم الثلاثاء إلى باريس سالمين فحمدنا الله تعالى .

باريس :

يخيل إلى السامع كما كان يخيل لنا أن باريس بلدة جميلة فى مبانيها وشوارعها

كباريس أوربا ولكن الأمر بالعكس ينطبق عليها المثل (سماعك بالمعيدى خير من أن تراه) فهى على بعد الشقة ووعورة الطريق قرية حقيرة المبانى والشوارع وسكانها كسالى وهبهم الله فى وسط قريتهم أكبر عين ماء تسمى (الخش) يرتوون منها ويسقون مواشيهم وبالقرب من القرية (عين الرماح) ومع وفرة الماء وخصب التربة فإن المزروعات قليلة . وفى القرية استراحة قضينا فيها ليلة الأربعاء بعد أن وقفنا على حالة التعليم بالقسم الليلى فى المدرسة، وفى صباح اليوم المذكور زرنا المدرسة . ثم عدنا إلى بولاق (فزرنا مدرستها فى ذلك اليوم كما سبق) ومنها إلى الخارجة فأقمنا بها ما بقى من ذلك اليوم ويوم الخميس ١٤ أبريل سنة ١٩٣٨ .

من الخارجة إلى الداخلة يوم الجمعة ١٥ أبريل سنة ١٩٣٨ :

فى الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ١٥ منه ركبنا السيارة من الخارجة إلى الداخلة ووصلنا مركزها موط فى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم، وأدركنا صلاة الجمعة بمسجدها ونزلنا فى استراحة الحكومة بها .

طريق الداخلة :

بين الخارجة وأول بلدة بالداخلة (تنيده) ١٥٥ كيلو مترا وبين هذه وموط ٤٥ كيلو مترا فتكون المسافة بين الخارجة وموط ١٥٥ كيلو مترا قطعتها السيارة فى ست ساعات وكان الطريق ممهدا وعليه علامات من الجانبين حتى لا تضل السيارة ومع ذلك فالمحافظة تحتاط دائما فتبرق إلى الداخلة بموعد قيام السيارة حتى إذا لم تصل بعد ست ساعات من ميعاد وصولها ترسل إليها سيارة إسعاف وكذلك الحال عند قيامها من الداخلة . ومن فضل الله علينا أننا لم نحتج إلى إسعاف بل قطعنا الطريق بين السهول والجبال ووصلنا سالمين .

وعلى بعد ٣٥ كيلو مترا من الخارجة رأينا آثار محطة الغراب التى أنشئت فى سنة ١٩١٤ إبان الحرب العظمى لنقل الجيوش الإنجليزية ومهماتها ولمراقبة

حركة جيوش السنوسى فى الداخلة إذذاك، وكانت المياه تصل إليها من الخارجة فى أنابيب . أما الآن فهى خربة وبعض قضبانها رفع،ولو أن المصلحة أبقتها ومدت الخط إلى الداخلة لربطت البلاد بعضها ببعض،وسهلت الوصول إلى تلك الجهات وزاد إيرادها من الأجور التى تتقاضاها على نقل الأفراد والبضائع التى تنقل الآن بالسيارات . وشاهدنا صحراء رملية واسعة مهدتها الطبيعة تسمى ملعب الخيل . وعلى بعد ١٥٥ كيلو مترا من الخارجة بئر الزيات ماؤها على بعد ١٦٠ مترا تأخذ منها السيارات ماتحتاج إليه من الما. بوساطة آلة ركبت عليها ، وقد دفعنى حب الاستطلاع إلى أن أجرب ذلك بنفسى فأخرجت الماء بسهولة .

الواحة الداخلة :

تتكون من البلاد الآتية : تنيدة . بلاط . أسمنت . المعصرة . موط . الهنداد . الراشدة . القصر . الجديدة يدخلو . الموشيه . القلمون .

موط :—

بلدة حقيرة المبانى والشوارع عدا منطقة مساكن الموظفين ودور المصالح الحكومية : المركز . المحكمة الشرعية . المستشفى . التلغراف اللاسلكى . الاستراحتان الأولى للمحافظة وكبار الموظفين والثانية للمتوسطين أمثالنا وقد نزلنا فيها) وهذه المنطقة منعزلة عن البلدة فى الجهة الشمالية جيدة الهواء بها شوارع واسعة معبدة ومتنزهات تحيط بها المزارع وتضاء المساكن والشوارع ليلا بالكهربا من مولد خاص .

أما مكتب البريد فهو فى الجهة الجنوبية من البلد مكان المركز القديم ،

من موط الى بلاد المركز الأخرى يوم السبت ١٦ منه :

غادرنا موط يوم السبت ١٦/٤/١٩٣٨ إلى الهنداد على بعد ٧ كيلو متر فزرنا وشاهدنا كثيرا من أشجار الفاكهة والنخيل كما زرنا عمدتها فى استراحة

ورأينا فيها عينا تمتاز بعذوبة مائها،وأشجار الموز والفاكهة تحيط بها والماء يتدفق منها على هيئة تسر الناظرين . ومن الهنداد ذهبنا إلى الراشدة على بعد ٨ كيلو متر منها وتمتاز هذه القرية بكثرة نخيلها فقد علمنا أن عدد المثمر فيها منه (٦٥٠٠٠ نخلة) كما تمتاز بكثرة الفاكهة ففيها البرتقالى والليمون الحلو بحجم كبير ليس فى غيرها من الواحتين ، وقد أكلنا من الصنفين فوجدناهما لذيذين وتلقب هذه القرية لكثرة أشجارها بروضة الصحراء وكانت محط رحال السنوسيين أيام الحرب العظمى وأقام الشيخ السنوسى فى ذلك الوقت باستراحة عمدتها وبعد أن زرنا المدرسة عدنا إلى موط وبتنا فيها .

يوم الاحد ١٧ منه :

سافرنا من موط إلى القصر على بعد ٣٥ كيلو مترا وهى مشهورة بجودة هوائها لأنها تقع على مرتفع من الأرض والجبال قريبة منها وتمتاز بعيونها ووفرة فواكهها وكثرة سكانها وبها نقطة شرطة وعلى بعد ٦ كيلو متر عين تسمى عين الجبل أو عين العمدة وقد افتتحت فى سنة ١٩٣٦ على ما علمنا من العمدة،ومياهها ساخنة دائما لا يستطيع الإنسان أن يستحم فيها دفعة واحدة بل بالتدريج وهى كبريتية وقد استشفى بها كثير من المصابين «بالروماتزم» فشفوا وقد شربنا منه قليلا فوجدنا طعمه مقبولا،وبعد أن اطلعنا على سير التعليم بمدرستها عدنا إلى موط للمبيت بها .

يوم الاثنين ١٨ منه :

فى صباح ذلك اليوم سافرنا من موط إلى بلاط على بعد ٣٦ كيلو مترا وبعد زيارة مدرستها رجعنا إلى أسمنت وهى على بعد ١٥ كيلو مترا من موط ثم إلى المعصرة على بعد ١٢ كيلو مترا من موط ثم إلى موط للمبيت بها . ولم نشاهد فى هذه البلاد الثلاث ما يستحق الذكر غير بعض آثار رومانية ببلاط وأسمنت .

يوم الثلاثاء ١٩ منه :

سافرنا من موط إلى القلمون والمسافة بينهما ١٥ كيلو مترا ومساكنها فوق ربوة عالية وبها عشر عيون ماؤها حديدى لا يصلح للشرب فيجلب أهلها الماء من الراشدة على بعد ٧ كيلو تقطعها الركوبة فى ساعة ونصف ذهابا وإيابا، وقد وضعنا جزءا من مائها على كوب من الشاى الذهبى فصار لونه كالمداد الأسود، ولكنه صالح للمزروعات وبخاصة الفواكه. وأهلها ينقسمون إلى قسمين :

ا — قسم يسمى الغُزْ وهم من نسل الجراكسة وجدهم الأكبر يقال له أضا باشا .

ب — الفلاحون وهؤلاء ثلاثة أقسام :—

(١) الفقراء وهؤلاء ينعون الموتى ويضربون على الدفوف لإخبار الناس بمن مات ويمشون أمام الجنائز .

(٢) الفلاحون وهؤلاء يفلحون الأرض ويستنبتونها .

(٣) الفقهاء .

ولما زرنا المدرسة وجدنا تلاميذها وتلميذاتها من الفقراء والفلاحين واستوقف نظرنا أن رأينا جميع التلميذات مكتحلات العيون بكحل أسود مجدولات الشعور، فى كل ناصية أربع ضفائر من الشعر وتلبس البنت فى كل أذن أربعة أقراط وفى أنفها خزام وملابسهن مرصعة بالأصداف من الأمام، ويعلقن فى شعورهن من الخلف قطعا من الحديد والجلاجل ثقيلة، وأخبرنى رئيس المدرسة أن تلك الحال عادتهن وأن قطع الحديد يعلقنها ليسترسل الشعر ويطول. ثم سافرنا من القلمون الجديدة التى تبعد عنها ٧ كيلو وتمتاز بكثرة البرتقالى والليمون الحلو وطينتها حمراء. ولا عيون فيها ويسقون مزارعهم من السواقى، ثم عدنا إلى موط وبتنا فيها .

يوم الأربعاء ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٨ :

وفى الساعة العاشرة والثلث من صباح يوم الأربعاء سافرنا إلى تنيدة أولى بلاد الداخلة وبها نقطة شرطة واستراحة للمحافظة وبها طريق صحراوى يوصل إلى أسيوط وهى قليلة الفواكه والنخيل والطيور ولكنها كثيرة الحبوب من قمح وأرز وشعير وتكثر بها الأرضة وهى حشرة صغيرة تأكل الأخشاب والورق، وقد رأينا كتب المدرسة مأكولة منها ومبانى تنيدة فوق ربوة وعيونها كثيرة وماؤها عذب وبعد أن زرنا مدرستها أقلتنا السيارة إلى الخارجة، فوصلنا فى منتصف الساعة الثانية عشرة ونزلنا باستراحة المحافظة .

فى الخارجة والعودة ٢١ و ٢٢ أبريل سنة ١٩٣٨ :

وفى يوم الخميس ٢١ منه زرنا مدارس الخارجة مرة أخرى وانتظرنا قيام القطار إلى وادى النيل وقد تحرك بنا فى الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة ٢٢ منه فوصلنا مواصلة الواحات فى منتصف الساعة العاشرة وانتظرنا بها حتى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حيث ركبنا القطار إلى قنا فوصلناها الساعة الثالثة .

العيون بالواحتين :

بالداخلة ٥٨٤ بئرا وعينا ، و٤٩٥ ساقية وبالخارجة عدد قليل وطريقة فتح العين أن يؤتى بآلة تسمى «الدولاب» لإخراج التراب على عمق ٢٠٠ ذراع ثم تعترض الفاتحين طبقة صخرية ينقبونها بآلة حادة كالحربة بعد وضع أنبوبة من الخشب عليها فيخرج الماء متدفقا ويجرى على الأرض بغزارة فى قنوات يعدونها لسقى المزارع من غير تعب، ومن فضل الله على سكان تلك الجهات أن ماء العيون يجرى ليل نهار بدون أن تنضب من زمن بعيد.

السكان وصفاتهم :

يبلغ عدد سكان الواحة الخارجة ٩٢٥٠ نفسا وعدد سكان الداخلة ١٩٥٠٠

نسمة يشتغلون بالزراعة ومساحة المنزرع فى الأولى ٣٥٠٠ فدانا وفى الثانية ١١٠٠٠ فدانا،ويزرع بهماالنخيل والفواكه والأرز والقمح بكثرة وقليل من الفول والذرة العويجة والبصل والعدس والفول السودانى ويكثر البلح العجوة فى الراشدة ويباع القنطار منه بـ ٢٥ قرشا ومن الصفات الحسنة التى امتازوا بها انتشار الأمن بينهم فترى الأبواب مفتحة ليلاوحظائر المواشى منعزلة عن المساكن ، ويسمونها المساطيح لاحارس لها ، فالناس آمنون على أنفسهم ومنازلهم ومزارعهم ومساطيحهم كما امتازوا بوداعة الأخلاق والطاعة وقلما يحدث بينهم حادث يصل أمره إلى المركز،وهم كرام يستقبلون الغريب بوجه باش ويتمنون زياراتهم والعمد فى بلادهم هم قادةالرأى وإليهم يرجع الأمرفى كل شىء وكلمتهم نافذة ، ويلاحظ على المزارعين عدم الجـــد وقلة النشاط فهم يكتفون بزراعة القليل من الأرض ويتركون الكثير على جودة تربته وسهولة استنباته . ويتمسك سكان الواحتين بالعادات العربية القديمةفلم أر امرأة خارج المنزل أو مطلة منه .

ديانتهم ولغتهم :

جميع السكان يدينون بالإسلام ويتكلمون اللغة العربية مع تحريف فيها، فيفخمون بعض الألفاظ كالماء والسماء . ويبدلون لام الكلمة نونا والعكس فينطق أهل القصر العنب علباً وعلب السجاير عنبا ولمن نمن وهكذا . . . وعندهم ألفاظ تدل على مصطلحات خاصة بينهم مثل :

ب ــ ميشبه : اسم مكيال وقدره $\frac{1}{7}$ كيلةعندهم ويساوى قدحا وربع قدح بالكيل المصرى .

أميلى : ٣٠ قدما يستعمل لضغط المياه الخارجة من العيون مدة ١٢ ساعة.

من عياطه : ومعناها: كثيرجدا. يقول المواطن لآخر:أعندك بلح؟ فيجيبه: من عياطة .

وش كان : ومعناها وماشأنك؟ يقول المواطن لآخر : أنت عملت كذا؟ فيجيبه وش كان .

قارة : ومعناها الشيء المرتفع يقول المواطن: بنى فلان بيته على القارة .

الأحكام

قانون الأحوال الشخصية نافذ بين الأهلين وماعدا ذلك فأحكام عرفية يقوم بها المحافظ وأعوانه.

الحيوانات :ــ

أكثر الحيوان هناك المعز ثم الأبقار إلا أنها هزيلة والحمير وهى جيدة وبهاقليل من الجمال ولا يربى بها الجاموس .

الاستراحات :ــ

للسكة الحديد استراحتان الأولى بالقارة ، والثانية بالخارجة . وللمحافظة ست استراحات:واحدة بالخارجة والثانية بباريس،وأربع ببلادالداخلةواحدة بتنيدة واثنتين بموطوواحدة بالقصر . وفى كل بلد استراحة للعمدة لاتقل عن استراحات الحكومة بل بعضها يفضل بعض استراحات الحكومة .

الخاتمة :ــ

تلك نبذة عن لنا أن نكشفها عن الواحتين لنضع أمام القارىء صورة عن جهة نائية بالقطر المصرى قد لايعرف الكثير من أبناء النيل عنها شيئا والله ولى التوفيق؟

أحمد على حسين
مفتش منطقة قنا

جولات فى الأدب

قرأت بشغف ومتعة المقال الطريف الذى نشره الأستاذ محمدعلى الدسوقى بالعدد الأخير من الصحيفة تحت عنوان (جولات فى الأدب) ولقد والله وفق فيه توفيقا كبيرا ، ولكن عرضت لى فيه بعض هنات هينات لم أجد من الخير أن تمر دون معقب . فرأيت أن أشير إليها لعل فى ذلك بعض الفائدة .

(١) أما الأولى ففى قوله عن بيت أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء

إن هذا المعنى لم يطرقه شاعر قبله ، وكان يعد فى زمانه من المتناقضات ، إذ كيف يداوى بنفس الداء ... الخ »

ولعلها زلةُ خاطر من الأستاذ أن يقول إن هذا المعنى لم يطرقه شاعرٌ من قبله ، مع أن هذا البيت نفسه تناوله كثير من القدامى بالذكر ، وأطالوا فى الإشارة إلى أصل معناه الذى عنه أخذ ، ولم ينكروا على أبى نواس الإجادة فيه ، وبلوغ الغاية فى اختيار اللفظ المونق له .

ألا ترى إلى قول زهير بن أبى سلمى (وقيل الأعشى)

وكأْس شربتُ على لذةٍ   وأخرى تداويتُ منها بها

وقد أخذَه قيس بن ذريح فقال :

تداويتُ من ليلَى بليلَى من الهوى   كما يتداوى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

ثم أخذ الشعراء والكتاب بعد أبى نواس يطرقون هذا المعنى فمنهم من يحلّق ومنهم من يسفّ ، بل انتقلوا منه إلى عكس هذه القضية فجعلوا التداوى من الداء بالداء ، لا يُرجى منه شفاء ، وتلك قضيه بَدَهيّة .. قال البحترى .

تداويتُ من لَيْلَى بليلى فما اشتفى   بماء الربى من باتَ بالماءِ يشرَقُ

وقريبٌ من ذلك الشاهدُ النحوى المشهور فى باب (لو) .

لو بغير الماء حلقى شرقٌ كنتُ كالغصّان بالماء اعتصارى[١]

هذا وقد سمعت — ولا أذكر ممن سمعت — أن المغفور له سعد زغلول باشا كان يتمثل بالشطر الأول من هذا البيت (لو بغير الماء ....) حينما يخرج عليه واحد من أتباعه وزملائه فى الوفد .

٭٭٭

(٢) أما الثانية ففى روايته قول الشاعر :

أقول لظبى مرَّ بى وهو راتعٌ أأنت أخو ليلى ؟ فقال يُقالُ

فقلتُ: أفى ظلِّ الأراكة والنقا يقال ويستظل ؟ فقال يقالُ

وذلك أن الشطر الأخير فى البيت الثانى غير مستقيم الوزن مهما تضبط كلمة (يستظل) وقد حاولت أن أرجع إلى هذا الشعر المتكلف فى مرجع، فلعل فيه تحريفا فلم أوفق ، فعمدت إلى الاجتهاد حتى يهديني الله إلى قول فصل فقلت : لعلها (يستَظْلَلْ) ولكنى وجدت أنى أنقذتُ الوزنَ لأجنىَ على النحو ، فأى مبرر لجزم هذا الفعل حتى يُفَكَّ إدغامُه؟ .. فقلت: لعلها (يُستَظلى) وأيَّد هذا ما رأيته فى القاموس (تظلَّى : لزم الظلال والدعة) ...

ومع هذا لا أرانى مرتاحا إلى هذا التخريج فلعل الأستاذ الدسوقى أو قارئاً من قراء الصحيفة يدلنا على صحة هذه الأبيات .

(٣) أما الثالثة فلعلها هفوة قلم ، وهى قوله فى الحديث (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن اسحاق بن يعقوب بن ابراهيم). والصواب (يوسف بن يعقوب بن اسحاق .. الخ)

٭٭٭

وبعد . . فهذه خواطر عرضت لى حيث قرأت المقال . وهيهات أن تغض من طلاوته ، أو تنقص من طرافته ؟

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

---

(١) ومن ذلك قول أكثم بن صيفى « من فسدت بطانته ، كان كمن غص بالماء » وقريب منه قول ابن زيدون فى رسالته الجدية « فلا غرو . قد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به » راجع المواهب الفتحية ج ٢ ص ١٨٢ .

فهرست

العدد الرابع من السنة السابعة